

وَصِيَّةُ المنصور بن أبي عامر العامري الأندلسي : دراسة وتحليل

يوسف بن أحمد حوالة

أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد بقسم العلوم الاجتماعية - كلية التربية
بالمدينة المنورة - جامعة الملك عبد العزيز - المملكة العربية السعودية

المستخلص : تعتبر الوصايا السياسية التي يتركها الخلفاء والملوك والأمراء لأبنائهم وأولياء عهدهم ذات أهمية بالغة في الدراسات التاريخية ، لأنها الانعكاس والتطبيق العملي لفلسفتهم وطريقتهم في الحكم . وفي هذا الإطار تأتي وصية المنصور بن أبي عامر العامري (٣٦٦ - ٣٩٢ هـ) الذي استبد بالأمور دون الخليفة الأموي الشرعي في الأندلس هشام المؤيد (٣٦٦ - ٤٠٢ هـ) لابنه وولي عهده عبد الملك والذي كَوَّن دولة داخل الدولة الأموية ، عُرفت بالدولة العامرية .

ولكي يصل الباحث إلى تحليل تاريخي وعلمي لبحريات هذه الوصية ، كان عليه أن يقدم بسطاً تاريخياً للظروف النفسية والزمانية والمكانية ، وهي الظروف المحيطة التي دفعت المنصور إلى توجيه وصيته لابنه ، كما كان عليه أن يعرف في نبذة مقتضبة بالمنصور بن أبي عامر ، منذ أن بدأ يظهر على مسرح الأحداث السياسية الأندلسية وحتى أصبح أحد صانعي القرار السياسي ، وهذا ما تضمنه بحث الدراسة .

أما مبحث التحليل ، فقد تتبّع الباحث الوصية ، فحلّلها تحليلاً تاريخياً وعلمياً ، مركزاً على الدروس السياسية التي شدّد عليها الأب في وصيته ، والتي طلب منه إذا أراد الاستمرار لدولته أن يترسّم خطاها .

وبالفعل فقد استوعب الابن الوصية تماماً ، فكان أن كُتِب الاستقرار لدولته وأصبحت دولته مضرب المثل في الأمن والاستقرار والازدهار .

المقدمة

تعدُّ وصية المنصور بن أبي عامر العامري من أشهر الوصايا السياسية في التاريخ الإسلامي ، وهي جديرة بمعالجة تاريخية ، تسير أغوارها ، وتحلل نصوصها ، لِمَا لذلك من أهمية في توضيح الصورة أو الحالة السياسية للأندلس في فترة من فترات حياتها السياسية ، ثم في توضيح مدى ما عكسه تطبيقها الحرفي من استمرار لحالة الاستقرار السياسي للدولة العامرية في عهد ابن المنصور : عبد الملك ، الذي لم يخالف وصية والده ، فكان أن استمرت دولته قائمة شامخة البنيان ، بفضل ذلك ، وبفعل عوامل أخرى لا صلة لها بالوصية ، ولعل ممَّا تقتضيه المنهجية العلمية أن تأتي الوصية في قسمين : الدراسة ، ثم التحليل .

الدراسة

الوصايا السياسية : أُولَئِهَا وَغَايَتُهَا

إذا تركنا الوصايا التي تحمل طابعاً شخصياً فقهيّاً محدداً ، فإن الوصايا الأخرى بجوانبها السياسية والاجتماعية بخاصة تمثل خلاصة تجارب عميقة في الحياة لأصحابها . هذا من نحو ، ومن نحو آخر هي تعبير عن رغبة ملحة في نقل هذه التجارب إلى المحيطين بهم من أولاد ، وأتباع ، حفاظاً على استمرارية هذه التجارب وضماناً لديمومتها .^(١)

والوصايا السياسية ليست أمراً بدعاً في حياة الدول والأنظمة فقد عرفت الدول التي سبقت دول الإسلام ، الوصايا وأهميتها في رسم سياسة الدولة للأجيال والآجال اللاحقة ، يترسّم فيها الخلف رؤى السلف^(٢) ، ثم جاءت دولة الإسلام بأنظمتها المتعددة ، فسارت على نفس الخطى .

(١) هذا عن مفهومها العام ، أما عن معناها اللغوي ، فإن الوصاة ، والوصايا ، والوصاية - والوصية : ما أوصت به . وسُمِّيت الوصية - وجمعها وصايا - لاتصالها بأمر الميت . وأوصى الرجل ، وصّاه : عهد إليه . أما معناها أو تعريفها في الشرع ، فهي هبة الإنسان غيره عيناً أو ديناً أو منفعةً ، على أن يملك الوصي له الهبة بعد موت الموصي . عن معنى الوصية اللغوي ، انظر : ابن منظور (ت ٧١١ هـ) ، لسان العرب ، منشورات دار الفكر ، بيروت ، دار صادر ، (د . ت) ، ١٥ مجلداً ، مجلد ١٥ ، ص ٣٩٤ . وعن تعريفها في الشرع ، انظر : سيد سابق : فقه السنة ، بيروت ، منشورات دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ط ٤ ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م ، ٣ مجلدات ، مجلد ٣ ، ص ٤١٤ .

(٢) انظر مثلاً وصية بعض ملوك الدولة الساسانية الفارسية لأبنائهم ، مثل أبرويز في وصيته لابنه شيرويه . ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، تحقيق محمد سعيد العريان ، تقديم ممدوح حقي ، بيروت ، منشورات دار الفكر ، (د . ت) ، ٤ مجلدات ، ٨ أجزاء ، المجلد الأول ، جزء (١) ، ص ١٧ ، ١٩ .

والوصايا تكتسب عند أصحابها من الخلفاء والملوك والأمراء ، أهمية بالغة ، وذلك لأنها بظابعها السياسي ، تُعبّر عن رغبة الخليفة أو الملك أو الحاكم بصفة عامة في استمرار أوضاع مملكته على ما رسمه ، وما كان ينتهجه من سياسة كما مرّ قبل قليل ، ثم هي نصائح محمّلة بثقل السنين ، وعظيم التجربة إلى خليفته وولي عهده ، توضّح له ما يجب عليه إتباعه إذا ما واجهته خطوب متوقعة أو غير متوقعة . وحسبنا مثلاً هنا أن نشير إلى وصية مشهورة في تاريخنا الإسلامي المبكر ، وهي وصية الخليفة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ، وهي التي سنشير إليها لاحقاً . ولقد ظل ذلك أمراً مرعياً عند كثير من خلفاء الدولة الإسلامية ، بل وملوكها الذين أنشأوا لهم دولاً خاصة بهم وبندرياتهم^(٣) .

في هذا الإطار تأتي وصية المنصور بن أبي عامر العامري ، حاكم الأندلس الفعلي والذي حكم الأندلس بين سنوات ٣٦٦ - ٣٩٢ هـ ، وهي المدة التي ظل يدير فيها شؤون مملكة الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك ، يساعده في ذلك : خلال وصفات باهرة ، وسعد ، وتوفيق ، وأقدار ، أقول في هذا الإطار تأتي وصيته لابنه وخليفته في السلطة المطلقة داخل دولة الخليفة الأموي : هشام بن الحكم . هذه الوصية أوصى بها المنصور ابنه حاجب الخليفة المحجور : الحاجب عبد الملك بن المنصور ، عندما شعر بدنو أجله ، وهو في آخر غزوة له ضد النصاري الأسبان ، والتي شدّد فيها على ابنه عبد الملك بوجوب ترسّمها ، لا سيما وقد رسم له فيها السياسة التي رآها كفيلة باستمرار دولته ، وهي الوصية التي يدور عليها هذا البحث .

(٣) الحقيقة أن الأمر أعسر من أن نخصيه عن هذه الوصايا السياسية التي تركها الخلفاء لأبنائهم . فمثلاً هذا عبد الملك بن مروان ، الخليفة الأموي المعروف والمؤسس الثاني للدولة الأموية يترك وصية سياسية مهمة لابنه وولي عهده الوليد ، أنظر ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ) ، البداية والنهاية ، بيروت ، منشورات دار الفكر ، طبعة ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م ، ٨ مجلدات ، ١٤ جزء ، ثم مجلد للفهارس ، مجلد ٥ ، جزء ٩ ، ص ٦٧ . وهذا الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور الذي تولى الخلافة من سنة ١٣٦ - ١٥٨ هـ ، يترك لابنه وولي عهده المهدي وصية سياسية جامعة مانعة مشهورة في التاريخ ، وضّح خلالها فلسفته في الحكم ، مُشدّداً على ابنه أن يترسّم نهجه في الحكم وإدارة الدولة . انظر : الطبري (٣١٠ هـ) ، تاريخ الأمم والملوك ، منشورات دار القاموس الحديث للطباعة والنشر ، (د.ت) ، ٥ مجلدات ، ١٠ جزء ، مجلد ٥ ، جزء ٩ ، ص ٣١٩ - ٤٢١ .

وللاستزادة عن الوصايا السياسية ، أنظر ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مجلد ١ ، جزء ١ ، كتاب اللؤلؤة في السلطان ، ص ص : ٨ - ٥٦ في صفحات متناثرة .

توطئة تاريخية بين يدي وصية المنصور بن أبي عامر

تولى الخليفة الأموي الحكم بن عبد الرحمن الناصر، الملقب بالمستنصر خلافة الأندلس سنة ٣٥٠هـ، والأندلس في الذروة قوة سياسية، وفي الأوج ألفاً وازدهاراً حضارياً بكافة مناحيه، فكان أن قاد دفعة الدولة والخلافة الأموية بعزيمة وكفاءة واقتدار، حتى أدركته الوفاة سنة ٣٦٦هـ.

وعلى الرغم من ثناء المؤرخين على الحكم المستنصر وإشادتهم بكفاءته إلا أنهم أنحوا عليه باللائمة لسوء تقديره السياسي، وذلك عندما ترك الخلافة تواجه مستقبلاً غامضاً بعده. تفصيل ذلك أن الحكم، وهو الذي لم يرزق بالولد إلا متأخراً، أي في سن الكهولة^(٥)، انجرف به حب الولد إلى أن يتخطى الأكفياء من إخوته: أبناء عبد الرحمن الناصر، فعهد بالخلافة إلى ابنه الثاني: هشام - بعد وفاة الابن الأول عبد الرحمن -، الذي كان طفلاً لم يبلغ الحلم.

ولعل ما يعيننا بداهة في هذه التوطئة، الإشارة إلى أن الأندلس دخلت في وضع سياسي جديد تماماً، تولى فيه الخلافة صبي قاصر، لماً يبلغ الحادية عشرة من عمره. ومن الطبيعي أن نتوقع ما حدث من تكالب على سلطانه من النافذين في البلاط من قادة، ووزراء وحجابه، حتى انتهى الأمر بوصول رجل شديد الطموح، هو محمد بن أبي عامر العامري المعافري إلى ذروة السلطة في الدولة.

التعريف بالمنصور صاحب الوصية

يحسن بنا وقد قدمنا هذه التوطئة بين يدي الوصية، أن نعقد ترجمة موجزة لصاحب الوصية

(٤) ابن بسام الششتري (ت ٥٤٢هـ)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، ٤ أقسام ويقع في كل قسم مجلدان، بيروت، منشورات دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١٠، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، القسم الرابع، مجلد ١، ص ص: ٥٦ - ٦٠. ابن عذارى (ت ٦٩٥هـ)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ٤ أجزاء، حقق الأجزاء الثلاثة الأولى ج. س. كولان وليفي بروفنسال، وحقّق الجزء الرابع إحسان عباس، بيروت، منشورات دار الثقافة، (د. ت.)، الجزء الثاني، ص ص: ٢٣٣ - ٢٥٣.

(٥) ولد الحكم سنة ٣٠٢هـ، ولم يرزق بالولد إلا بعد تولّيه الخلافة بسنة، فقد رزق بولده الأول عبد الرحمن سنة ٣٥١هـ والذي ما لبث أن توفي طفلاً، ورزق بالولد الآخر هشام وهو الذي ولّاه الخلافة صبياً سنة ٣٥٤هـ، انظر: ابن عذارى، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ص ١٦٦، ٢٣٥، ٢٣٧. وهكذا فبالفعل كان الحكم كهلاً وقتها. والكهل في اللغة: من جاوز الثلاثين إلى نحو الخمسين.

انظر: إبراهيم مصطفى، وأحمد حسن الزيات، وحامد عبد القادر ومحمد علي النجار، المعجم الوسيط، منشورات مجمع اللغة العربية بعناية دار إحياء التراث العربي، وأشرف على طبعه عبد السلام هارون - طهران، المكتبة العلمية، (ذ. ت) جزآن، الجزء الثاني، ص ٨٠٩.

منذ ظهر لأول مرة في بلاط الخليفة الحكم ، وحتى وفاة هذا الخليفة سنة ٣٦٦ هـ ، وهي الوفاة التي فتحت أبواب أمل ابن أبي عامر في الإنفراد بالسلطة والسلطان على مصراعها . ومن الطبيعي أننا لسنا معنيين هنا بتتبع الأحداث التي حدثت بعد وفاة الخليفة الحكم المستنصر ، أي بعد وفاة الخليفة الحكم سنة ٣٦٦ هـ وحتى سنة ٣٩٢ هـ ، وهي السنة التي توفي فيها المنصور ، ذلك أن مكان ذلك هو التحليل ، وهو بهذه الأحداث أعلق وألصق . ولذلك فإن ما يهمننا الإشارة إليه هنا في هذا التعريف ، هو نبذة يسيرة وترجمة مقتضية له منذ سنة ٣٥٦ - ٣٩٦ هـ .

يمكن القول في البداية إن المنصور : هو محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافري البيني ، كما يمكن القول إن بيته بيت قديم من بيوتات العرب البينية في الأندلس منذ فتح طارق بن زياد للأندلس سنة ٩٢ هـ^(٦) .

تتفق المصادر على أن محمداً بن أبي عامر ينتسب إلى مدينة الجزيرة الخضراء^(٧) التي يعود أصل أسرته إليها ، كما تتفق على أنه قدم قرطبة شاباً ، فتلقى بها علومه الشرعية والأدبية بنفس وثابة^(٨) . وإذا كنا نحتاج في هذا التعريف إلى كيفية صعود نجمه في دولة الخليفة الحكم المستنصر ، فإن ابن عذاري^(٩) قد كفانا في الحق مؤونة البحث عن ذلك في طيّات المصادر المختلفة ، برصده الجيد لخطوات صعود نجم محمد بن أبي عامر المتسارعة المتلاحقة .

يدو أن مهارة محمد بن أبي عامر في الكتابة قد لفتت نظر بعض العاملين في قصر الخليفة الحكم إليه ، ولذلك فلما احتاج إلى كاتب يكون مختصاً : وكيلاً ، لابنه الطفل عبد الرحمن والذي

(٦) ابن الخطيب (ت ٧٧٦ هـ) ، أعمال الأعلام في من بويغ قبل الاحتلام من ملوك الإسلام ، تحقيق وتعليق أ . ليفي بروفنسال ، نشر على جزأين في عدة أقسام ، وقد نشرت هذا الجزء ، بيروت ، دار المكشوف ، ١٩٥٦ م ، ص ٥٩ .

(٧) انظر مثلاً ابن الأبار (ت ٦٥٨ هـ) ، الحلة السرياء ، حققه وعلّق حواشيه حسين مؤنس ، القاهرة ، منشورات الشركة العربية للطباعة والنشر ، ط ١ ، ١٩٦٣ م ، جزءان ، الجزء الأول ، ص ٢٦٨ ، ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٥٦ . أمّا مدينة الجزيرة الخضراء : Algeciras ، فهي مدينة أندلسية تطل على ربوة مشرفة على البحر (المتوسط) ، وتسمى كذلك جزيرة أم حكيم ، وهي جارية طارق بن زياد فاتح الأندلس مع موسى بن نصير . انظر : الحميري (ت ٩٠٠ هـ) ، الروض المعطار في خبر الأقطار - معجم جغرافي - تحقيق إحسان عباس ، بيروت ، منشورات مكتبة لبنان ، ط ٢ ، ١٩٨٤ م ، ص ٢٢٣ مع الحاشية رقم (١) .

(٨) ابن الأبار ، الحلة السرياء ، ج ١ ، ص ٢٦٨ .

(٩) ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ص : ٢٥١ - ٢٥٢ .

رزق به من جاريته : صُبح البشكنشية^(١٠) سنة ٣٥١هـ ، أشير له به ، وكان ذلك سنة ٣٥٦هـ . وهكذا كانت هذه الوظيفة أولى خطواته في طريق الملك والسلطان . ولقد ظل في خدمة هذا الابن وخدمة السيدة والدته ، حتى توفي عبد الرحمن بن الحكم طفلاً سنة ٣٥٩هـ . ثم رأى الخليفة أن يصرف ابن أبي عامر إلى خدمة ولده الآخر هشام الذي رزق به سنة ٣٥٤هـ ، وذلك في سنة ٣٥٩هـ نفسها .

ويبدو أن الخليفة الحكم قد تيقن من كفاءة محمد بن أبي عامر ، ووفرة نشاطه وحماسه الكبير في تنفيذ ما يسند إليه ، لذلك نراه - أعني المنصور - يتولى منذ سنة ٣٥٦-٣٦٦هـ ، أي سنة وفاة الحكم مجموعة مناصب قيادية إدارية وعسكرية رفيعة^(١١)

(١٠) السيدة صُبح البشكنشية (البشكنش ، هم [Basquoes [Vascones]) ، أي الباسك نسبة إلى منطقة بسكاي Biscaya سكان بلاد نافار في شمال أسبانيا) هي جارية الخليفة الحكم المستنصر وحظيته ، وقد عرفت في التاريخ بالسيدة أم هشام . ولقد كانت ذات حظوة كبيرة عند سيدها ومولاها الخليفة الحكم . وقد أطلق عليها إسم : جعفر . ولقد مارست السيدة صُبح دوراً سياسياً كبيراً أثناء حياة زوجها الخليفة الحكم بعد أن أنجبت له الولدين : عبد الرحمن وهشام حسبما ورد في المتن . ثم زاد هذا الدور تعاضماً في السنين الأولى من خلافة ابنها هشام المؤيد . كما أن ممّا يذكر أنها هي التي رعت محمد بن أبي عامر في بدايته منذ كان كاتباً أمام قصر الخليفة يكتب للناس الخطابات المرفوعة للخليفة ، حتى وصل إلى البلاط الخلفي ، ثم رعته حتى بلغ ما بلغه من نفوذ وسلطة في عهد الحكم ، وظلت ترافق كل خطواته في إعتلاء السلطة - بموافقة منها - حتى تخلّص من خصومه ، ثم إنقلب عليها أخيراً وأذلّها وأمات ذكرها بعد ذلك ، فلا يُعرف أي دور سياسي لها بعد ذلك ، ولا يُعرف تاريخ وفاتها كذلك .

عن الباسك وموطنهم الأصلي في أسبانيا وحياتهم الاجتماعية والشعور القومي عندهم الذي يرون أنهم يتميزون به عن بقية سكان أسبانيا ، واعتزازهم بلغتهم التي يرونها مستقلة عن لغة بقية سكان أسبانيا ، أنظر : O'callaghan, J.F. *A History of Medieval Spain*. Ithaca, Cornell University Press, 1975, P. 27,44.

وعن البشكنش وعلاقتهم بأسبانيا الإسلامية أنظر : البكري (ت ٤٨٧هـ) ، جغرافية الأندلس وأوروبا - مسئلة من كتاب المسالك والممالك ، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي ، بيروت ، منشورات دار الارشاد للطباعة والنشر والتوزيع ، ط ١ ، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م ، ص ٦٩ ، ثم حاشية (١) من نفس الصفحة ، وعن صُبح أنظر : ابن عذارى ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ابن بسام ، الذخيرة ، ص ٥٩ ، ٦٠ ، ٧٠ ، ٧٢ . المقرئ (ت ١٠٤١هـ) ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ، منشورات دار صادر . ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م ، ج ١ ، ص ٣٩٩ ، ص ٦٠٣ . وقد نفى فيها وجود أي رية وشك في علاقتها مع المنصور ، ممّا كان يتردّد صداه آنذاك في الأندلس .

(١١) عن هذه المناصب الإدارية والعسكرية التي تولّاها المنصور ، انظر : ابن عذارى ، نفسه ، ج ٢ ، ص ص

ها نحن أولاء إذن أمام رجل طموح يرتقي مناصب مختلفة أحاداً وجملة في بعض الأحيان ،
وها نحن كذلك مع رجل بدأ يتسّم مكاناً كبيراً في بلاط الخليفة الحكم .

وما انفك محمد بن أبي عامر يني مجده يوماً إثر يوم في السنين الأخيرة من خلافة الحكم
المستنصر ، ولذلك نراه منذ ولي الخليفة ابنه هشام ولاية العهد وأعلن ذلك على العلن سنة ٣٥٩ هـ ،
يزداد مكانة عند الخليفة نفسه وعند الناس (لخاصته بولي العهد ومكانه من السيدة والدته ،
فاحتاج الناس إليه وغشوا بابيه ، فأنساهم من سلف من أصحاب السلطان سعة إسعاف وكرم لقاء ،
وسهولة حجاب ، وحسن أخلاق ، فعرض جاهه ، وعمر بابيه ... وأخذ الكتاب الجلّة ،
واستصحب سراة الصحابة ، وكانت مائدته موضوعة لمن يتتاب داره ، وهمته تتراعى إلى وراء ما
يناله ...) حسبما خرج لنا ابن عذاري^(١٢) . أيضاً توالي ظهور نفوذ محمد بن أبي عامر وزيادة
سلطانه .

ولعل آخر مظهر من المظاهر التي أعطت الدليل القاطع على أن محمداً بن أبي عامر ، غداً
واحدًا ممّن يملكون صناعة القرار السياسي داخل البلاط الأموي ، ولا سيما بعد أن زادت علة
الخليفة ، وأشيع أنه قد مات ، هو إشارته الصائبة « باستركاب ولي العهد هشام في ذلك اليوم في
الجيش إرهاباً لأهل الخلاف ، ففعل ، وركب في الناس ركبته المشهورة ، ومحمد بن أبي عامر بين
يديه ، وقد كساه الخنز ، ونقله إلى أكابر أهل الخدمة ، وأمر ولي العهد هشام في ذلك اليوم بإسقاط
ضريبة الزيتون المأخوذة في الزيت بقرطبة ، وكانت إلى الناس مستكرهة ، فسروا بذلك أعظم
سرور . ونسب شأنها إلى محمد بن أبي عامر ، بأنه أشار بذلك ، فأحبوه لذلك » كما ذكر ابن
عذاري^(١٣) كذلك .

هذا السرد الطويل بعض الشيء في تقديم نبذة عن المنصور ، يفيدنا في تحليل الوصية ، من
جهة وفي التأكيد كذلك على أن خطوات المنصور في تسلّق السلطة كانت محسوبة في كثير من
الأحيان بدقة ، من جهة ثانية ، بجانب ما واتاه به الحظ وحده من جهة ثالثة .

ظروف توجيه الوصية

نقل ابن بسام عن ابن حيان تفاصيل الأيام الأخيرة من أيام المنصور بن أبي عامر في الحياة
الدنيا ، وذلك نقلاً عن شاهد عيان هو خلف بن حسين والد ابن حيان ، وكاتب المنصور^(١٤) .

(١٢) نفسه ص ٢٥٨ .

(١٣) نفسه ، ص ٢٥٩ .

(١٤) انظر : ابن حيان ، (ت ٤٦٩ هـ) المقتبس من أنباء أهل الأندلس - القطعة الثانية - تؤرّخ للسنوات الممتدة —

وقد وُضِّح خلف هنا كيف داهم مرض الموت المنصور ، وهو في غزوته ضد النصارى^(١٥) بمدينة سالم^(١٦) . مع ذلك كان يفكر بأمر الحاضرة أو العاصمة قرطبة ، ثم بأمر دولته ، وأسرته ، ممّا يعد مقدمة للوصية .

والحق أن هذه الوصية التي أوردها ابن بسام نقلاً عن ابن حيان مهمة في تبيان الظروف الصحية والنفسية والزمانية والمكانية ، ثم السياسية التي رافقت توجيه الوصية ، والناظر إليها يجد نفسه أمام جملة من المعطيات والخاوف السياسية ، متباينة المنازع ، ثم المشاعر الأبوية المضطربة ، وقد أسهمت جميعها في ظهور هذه الوصية ، أو قل في إعطائنا هذه الوصية التي تشع بين جنبات عباراتها معان مختلفة ، حسبما ستوضحه الوصية^(١٧) .

— من ٢٣٢ - ٢٦٧ هـ ، حققه وقّده له وعلّق حواشيه محمود علي مكّي ، بيروت ، منشورات دار الكتاب العربي ، ١٩٧٣ م ، ص ص : ٨ - ١٩ ، حيث تتبّع المحقّق في الدراسة هذا الموضوع بعناية بالغة ، وبين كيف أن ابن حيان قد استفاد في موسوعته التاريخية من الأخبار التي سمعها شفاهة من أبيه خلف بن حسين الذي نقل له تلك الأحداث التي شاهدها ورآها رأي العين ، بل وشارك في بعضها بصفته الوظيفية تلك . (١٥) أجمعت المصادر التي أرّخت للأندلس خلال فترة حكم المنصور ، على أن المنصور استطاب القيام بغزوات سنوية ضد نصارى الأندلس منذ أصبح سيد الأندلس الفعلي ، بل لعله دأب على هذا منذ بدأ يخطّط للوصول إلى السلطة المطلقة في دولة هشام المؤيد بالله (انظر : ابن عذارى ، نفسه ج ٢ ، ص ٢٦٤ حيث النص على أن المنصور قام بأول غزوة له في نفس سنة ٣٦٦ هـ التي توفي فيها الخليفة الحكم) . ولقد جعل المنصور ذلك شغله الشاغل فقد كان ينهض إلى الغزو مرتين كل عام فيما عُرف بالصوائف والشواتي ، وغزوته هذه التي خرج فيها سنة ٣٩٢ هـ والتي مات خلالها حتف أنفه ، كانت الغزوة رقم ٥٦ . انظر : ابن بسام ، المصدر السابق في القسم والمجلد ، ص ٦٢ . ابن الآبار ، الحلة السرياء ، ج ١ ، ص ص : ٢٦٨ - ٢٦٩ ، ٢٧٣ . ابن عذارى ، نفسه ، ج ٢ ، ص ص : ٢٦٤ - ٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٩٤ - ٣٠١ ، المقري ، فتح الطيب ، ج ١ ، ص ٣٩٨ .

(١٦) مدينة سالم ، يقول عنها ياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ) ، معجم البلدان ، بيروت ، منشورات دار صادر ودار بيروت للطباعة ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م ، ٥ مجلدات ، المجلد الثالث ، ص ١٧٢ . مدينة سالم مدينة بالأندلس من أعظم المدن وأشرفها وأكثرها شجرًا وماءً ، وكان طارق بن زياد لما أفتتح الأندلس ألفها خرابًا فعمرت في الإسلام . وقد مضّرت في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) سنة ٣٣٥ هـ ، وهو تواجه بلدة قشتالة (قشتالة) وكانت شجًا في حلق الكافرين - لطبيعتها الثغرية - كما يقول ابن عذارى نفسه ، ج ٢ ، ص ص ٢١٣ - ٢١٤ . ويقول محمود علي مكّي ، القطعة الثانية من كتاب المقتبس ، ص ٥١٤ في تحقيقه لهذه المدينة : إن مدينة سالم Medinaceli التي احتفظت باسمها العربي ، تقع في الطريق بين مدريد وسرقسطة ، وتبعد عن مدريد ١٣٥ كم ، وتقع منها إلى الجنوب على بعد ٧٥ كم ، وإنها تدين بفضل إنشائها لسالم بن وركال بن وكذان أحد كبار القادة البربر ، الداخِل إلى الأندلس في فترة مبكرة قد تكون موافقة للفتح الإسلامي للأندلس .

(١٧) عن هذه المقدمة ، انظر : ابن بسام ، الذخيرة ، القسم الرابع ، المجلد الأول ، ص ص ٧٣ - ٧٦ .

مصادر الوصية

إن الاستقراء التاريخي الواسع الذي قمنا به لأمهات المصادر الأندلسية^(١٨) التي تحدثت عن هذه الحقبة ، يؤكد لنا بأن ثمة مصدرين اثنين احتفظا لنا بنص الوصية هما كتاب (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة) لابن بسام الششتري ، وكتاب (أعمال الأعلام فيمن يبيع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام) لابن الخطيب السلمي^(١٩) . ولا نكاد نستثني من أولئك المؤرخين ، سوى المقرئ صاحب نفع الطيب ، فلقد اشترك مع ابن بسام في التذكير بأمر الوصية ، وهو يعرض لأخبار المنصور بن أبي عامر ، وزاد ، فأورد بعض سطور من مقدمة الوصية التي قدم بها ابن بسام النص الكامل لها ، وهذا أمر طبيعي ولا سيّما وهو ينص صراحة على أنه ينقل من كتاب الذخيرة لابن بسام^(٢٠) .

لذلك فليس مستغرباً أن يكون ابن بسام وابن الخطيب ، مصدرين أصيلين في هذا الموضوع . والحق أنه لولاها ولولا نقلهما هذا النص من كتاب شيخ مؤرخي الأندلس قاطبة ، ابن حيان القرطبي^(٢١) : الدولة العامرية^(٢٢) ، لفقدنا هذا الأثر التاريخي الجليل . والشكر موصول لهما ، وهما

(١٨) عدنا إلى المصادر التالية - والتي نراها أصيلة في تاريخ الأندلس خلال هذه الفترة : البيان المغرب لابن عذارى ، والمعجب في تلخيص أخبار المغرب عبد الواحد المراكشي ، ضبطه وصمّمه وعلّق حواشيه وأنشأ مقدمته محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي ، تقديم ممدوح حقي ، الدار البيضاء ، منشورات دار الكتاب ، ط ٧ ، ١٩٧٨م ، ثم ابن الأبار ، الحلة السراء ، ثم ابن خلدون (ت ٧٣٢هـ) وكتابه المعروف ، العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة ، وراجع سهيل ذكار ، منشورات دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ط ١ ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م ، ٨ مجلدات .

(١٩) ص ص ٨١ - ٨٢ .

(٢٠) عن الإشارة إلى مقدمة الوصية ، انظر : المقرئ ، النفع ، ج ٣ ، ص ٩٢ ، ص ص ٩٣ - ٩٤ ، أما عن تصريحه بالنقل عن ابن بسام ، فانظر : نفس الجزء ، ص ٩٢ ، ٩٣ ، مع حواشي المحقق إحسان عباس ، الذي تابع ذلك .

(٢١) عن ابن حيان الذي اتفق الكثيرون من الباحثين ، قدامى ومحدثين ، على أنه من أعظم مؤرخي الإسلام ، وأنه شيخ مؤرخي الأندلس بلا نزاع ، انظر : الدراسة الواسعة المدققة الموقّعة التي قام بها محمود علي مكّي ، محقق ومعلّق القطعة الثانية من كتاب ابن حيان : المقتبس من البداية - ١٦٠ . (يقع الشاهد في ص ٧ ، ١٠٤ ، ١٥٥ ، ص ص ١٤٥ - ١٤٦) .

(٢٢) أخبار الدولة العامرية ، كتاب آخر من كتب ابن حيان القرطبي ، بجانب المقتبس ، والمتين والبطشة الكبرى ، وهو مفقود ، ويؤرّخ للدولة العامرية - كما هو واضح - في الفترة الممتدة بين سنوات ٣٦٦ - ٣٩٩هـ ، حيث سقطت هذه الدولة . والكتاب له أهمية بالغة في البحوث المتعلقة بالدراسات الأندلسية بعامّة ، وفي بحثنا -

يتحفانا بهذه المعلومة القيمة التي يتضح من ثناياها - أعني الوصية - فلسفة المنصور بن أبي عامر في الحكم ، وتفسّر لنا بالتالي طبيعة عصره ، بل العصر كله من الناحية السياسية .

نص الوصية والاختلاف بين راوييها

بوسعنا القول إن روايتي ابن بسام وابن الخطيب للوصية التي تركها المنصور بن أبي عامر لا تكادان تختلفان كثيراً ، وإذا كانت هنالك إختلافات ، فإنها إختلافات يسيرة في الألفاظ والكلمات ، وسنشير إليها لاحقاً عند التحليل كلما دعت الحاجة لذلك .

كما أن من المهم الإشارة إلى إتفاقهما سوية في الإشارة إلى وصية المنصور الأخرى التي وجهها إلى غلمانها من الصقالبة الذين عرفوا بالفتيان العامريين^(٢٣) ، والتي طلب فيها منهم مناصحة ابنه عبد

— هنا بخاصة ، لأن مؤلفه ابن حيان ، عاصر وعاش في شبابه هذه الدولة ، وكان يستقي أخبارها ممّا شاهده ورآه ، وكذلك ممّا استقاه من أفواه بعض موظفيها ، ثم ممّا تسنى له الإطلاع عليه من وثائقها . وقد نقل عن هذا الكتاب المفقود ، نفر من مؤرخي الأندلس المعروفين ، كابن بسام ، وابن الأبار ، وعبد الواحد المراكشي ، وابن الخطيب والمقري ، وغيرهم . انظر : ابن حيان ، القطعة الثانية من المقتبس - الدراسة ، ص ص ٦٠ - ٨٠ .

(٢٣) الفتيان العامريون ، هم ممالك أو أرقاء المنصور ابن أبي عامر ، وهؤلاء الفتيان صقالبة . ولعل من المناسب هنا أن نشير إلى معنيين تاريخيين للصقالبة ، الصقالبة كجنس ، والصقالبة كطبقة إجتماعية عرفتها بلاد الأندلس . أما الصقالبة كجنس (الصقالب أو الصقلب) ، فهم مايسمون في الإنجليزية : Slav وفي الفرنسية Esclav وفي اللاتينية Sclavus ، وقد بلغوا من القوة حدّاً كبيراً في القرن الثالث عشر الميلادي ، ثم مدّوا نفوذهم إلى مناطق شرق ووسط أوروبا ، ولقد انقسموا إلى شعوب عدّة ، وسكنوا البلدان الممتدّة من بحر قزوين شرقاً إلى البحر الأدرياتي غرباً والتي كانت تعني في العصور الوسطى بلاد بلغاريا العظمى . انظر : أحمد مختار العبادي ، في تاريخ المغرب والأندلس ، القاهرة ، منشورات دار النهضة العربية ، ١٩٧٨ م ، ص ص ١٩٧ - ١٩٨ وانظر كذلك : تحقيق الحجي لكتاب البكري ، جغرافية الأندلس وأوروبا ، ص ص ١٥٤ - ١٥٥ . أما الصقالبة كطبقة إجتماعية ظهرت في عصر الخلافة الأموية والدولة العامرية ، فتتكوّن من الأطفال الذين يسترقون من بلدان أوروبا ، ثم يباعون في أسواق الأندلس بيع العبيد ، وكان رجال القصور الخليفة يشترونهم للخليفة فيربون تربية عسكرية ومدنية وإدارية في القصور . وقد بلغوا مكانة رفيعة من النفوذ في بلاطات الأمويين والعامريين ، حتى غدوا ينسبون إليهم ، فيقال : الفتى الناصري ، والفتى المستنصري ، والفتى العامري . وغالباً ما يكون هؤلاء محبوبين ، أي مخصّين منذ بيعهم في أسواق النخاسة . ولعل سبب تسميتهم بالصقالبة لأنهم من أصل أوربي وليس بالضرورة أن يكونوا سلافاً ، غير أن اشتهاً كلمة الصقالبة عند الأندلسيين للدلالة على شعوب شرق أوروبا ، جعلهم يعمّون هذه التسمية على أرقائهم المجلولين من كل أوروبا انظر : تعليق عبد الرحمن علي الحجي على هذه المادة في كتاب البكري ، جغرافية الأندلس وأوروبا ، حاشية رقم (٤) ، ص ١٩٦ .

الملك ، وتعزيده وتأييده . هذه الوصية التي نرى ضرورة الإشارة إليها هنا وهي التي يقول فيها المنصور لغلمانه : « تنبهوا لأمركم واحفظوا نعمة الله عليكم ، في طاعة عبد الملك أخيككم ومولاكم ، ولا تغرّكنكم بوارق بني أمية ، ومواعيد من يطلب منهم شتاتكم . وقَدِّروا ما في قلوبهم وقلوب شيعتهم بقرطبة من الخقد عليكم . فليس يرأسكم بعدي أشفق عليكم من ولدي . وملاك أمركم أن تنسوا الأحقاد وأن تكون جماعتكم كرجل واحد ، فإنه لا يفيل فيكم ، وما زال يكرر هذا وشبهه لطائفة بعد أخرى حتى ضعف وشغل بنفسه » .^(٢٤)

غير أن رواية ابن بسام تنفرد بميزة احتوائها على التوضيح المهم للظروف المحيطة التي أملت على المنصور توجيه وصيته لابنه الحاجب عبد الملك مباشرة، وهذا التوضيح الذي يعد بمثابة مقدمة تسبق الوصية ، وتسهم في توضيح أبعاد الوصية ، بل وفي توضيح أبعاد شخصية المنصور بن أبي عامر كما سبق أن ذكرنا .

وإذا استقام لنا هذا التوضيح ، فإن من الأصوب أن نذكر هنا بأننا سنعتمد نص الوصية الذي أورده ابن بسام ، لاحتوائها على أمر المقدمة من نحو ، ومن نحو آخر لأن ابن بسام أقرب معاصرة للأحداث الأندلسية التي تضمنتها الوصية ، وكذلك لأنه أقرب زمنياً إلى ابن حيان راوي الوصية المباشر من ابن الخطيب^(٢٥) . وسيكون هذا شأننا أيضاً مع نص وصية المنصور لغلمانه ، وهو النص الذي سنفيد منه هو الآخر عند التحليل لاحقاً .

= أما فتیان المنصور الذين نسبوا إليه ، فأصبحوا لا يعرفون إلا بالفتيان العامرين ، وكانوا عوناً له ولابنه عبد الملك ، فقد ذكرهم ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ١٠٣ ، فقال : إن المنصور هلك عن سبعة خلفاء من فتياه الأكابر ، وكان شأنهم في ملك الأموية كبيراً ... وكان من مشاهيرهم واضح ، بشير ، نظيف ، نجاء ، مجاهد زهير ، خيران ... الخ .

(٢٤) انظر : ابن بسام ، المصدر السابق ، القسم الرابع ، المجلد الأول ، ص ص ٧٦ - ٧٨ . ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ص ٨٢ - ٨٣ .

(٢٥) نذكر هنا بما ذكرناه في المعلومة التوثيقية لكتاب ابن بسام الذخيرة ، والواردة في الحاشية رقم (٤) من أن ابن بسام توفي سنة ٥٤٢ هـ ، بينما توفي ابن الخطيب سنة ٧٧٦ هـ كما ذكرنا في الحاشية رقم (٦) في المعلومة التوثيقية لكتابه أعمال الأعلام . أما ابن حيان ، فقد توفي سنة ٤٦٩ هـ ، كما ذكرنا في المعلومة التوثيقية لكتابه ، المقتبس والواردة في الحاشية رقم (٤) .

التحليل

نص وصية المنصور لابنه عبد الملك

« ... أخبرني أبي قال : سمعت محمد بن أبي عامر يوصي ابنه عبد الملك في مرضته تلك ويقول في جملة كلامه : يا بني ، لست تجد أنصح لك مني فلا تعدن مشورتني : لقد جرّدت لك رأي ورويتي على حين اجتماع ذهني ، فاجعلها مثلاً بين يديك . قد وطأت لك مهاد الدولة ، وعدّلت لك طبقات أوليائها ، وغايرت لك بين دخل المملكة وخرجها ، واستكثرت لك من أطعمتها وعددها ، وخلفت جباية تزيد على ما ينوبك لجيشك ونفقتك ، فلا تطلق يدك في الإنفاق ، ولا تقيّض لظلمة العمال ، فيختل أمرك سريعاً . فكل سرف راجع إلى اختلال لا محالة . فاقصد في أمرك جهدك ، واستثبت فيما يرفع أهل السعاية إليك . والرعية قد استقصيت لك تقويمها ، وأعظم منهاها أن تأمن البادرة وتسكن إلى لين الجنبية .

وصاحب القصر قد علمت مذهبه ، وإنه لا يأتيك من قبله شيء تكرهه . والآفة ممن يتولاه ويلتمس الوثوب باسمه ، فلا تنم عن هذه الطائفة جملة . ولا ترفع عنها سوء ظن وشممة ، وعاجل بها من خفته على أقل بادرة . مع قيامك بأسباب صاحب القصر على أتم وجه ، فليس لك ولا أصحابك شيء يقيكم الخنث في يمين البيعة إلا ما تقيمه لولائها من هذه النفقة . فأما الإنفراد بالتدبير دونه مع ما بلوته من جهله وعجزه عنه ، فإني أرجو أني وإياك منه في سعة ما تمسكنا بالكتاب والسنة .

والمال المخزون عند والدتك هو ذخيرة مملكتك ، وعدة لحاجة تنزل بك ، فأقمه مقام المارحة من جوارحك التي لا تبذلها إلا عند الشدة تخاف منها على سائر جسدك . ومادة الخراج غير منقطعة عنك بالحالة المعتدلة .

وأخوك عبد الرحمن قد صيرت إليه في حياتي ما رجوت أني قد خرجت له فيه عن حقه من ميراثي ، وأخرجته عن ولاية الثغر لئلا يجد العدو مساعاً بينكما في خلاف وصيتي فيسرع في نقض أمري ، وتجلب الفاقة على دولتي ، وقد كفيتك الحيرة فيه فاكفه الحيف منك ، وكذلك سائر أهللك فيما صنعت فيهم بحسب ما قدّرت به ، خلاصي من مال الله الذي في يدي ، وخلافتك بعدي أجدي عليهم مما صرفته ، فلا تضع أمر جميعهم . والحظهم بعيني ، فإنك أبوهم بعدي ، فخرّج ذكورهم باستخراجك ، والحف إناثهم جناحك ، جبر الله جماعتهم ، وأحسن الخلافة عليكم .

فإن انقادت لك الأمور بالحضرة ، فهذا وجه العمل ، وسبيل السيرة ، وإن اعتاصت عليك فلا تلقين بيدك إلقاء الأمة ، ولا تطيبك وأصحابك السلامة ، فتنسوا مالكم في نفوس بني أمية وشيعتهم بقرطبة . فإن قاومت من توثّب عليك منهم فلا تذهل عن الحزم فيهم . وإن

خفت الضعف فانتبذ بخاصتك وغلماذك إلى بعض الأطراف التي حصنتها لك . واختبر غذك
إن أنكرت يومك . وإياك أن تضع يدك في يد مرواني ما طوعتك بنانك ، فإني أعرف ذنبي
إليهم (٢٦) .

تتميز هذه الوصية فيما نحسب بأنها تركز على شقين أو موضوعين إثنيين : الأول سياسي
محض ، والثاني أسري بحت . ولذلك فإننا ونحن نتميز إلى تحليلها ، نرى ضرورة أن نقسمها إلى
هذين الشقين ، فنتتبع فقرات كل شق ، ونكون منه قسما ، حتى ولو تطلّب الأمر الخروج عن
تسلسل النص بصيغته الحرفية الأصلية ، لأن ذلك يخدم التحليل ، ثم وكما فعلنا من قبل نقوم بتقسيم
هذا الشق إلى فقرات ، تنبثق منها عدة جزئيات .

الشق السياسي

الفقرة الأولى :

احتوى الشق السياسي على أربع فقرات ، جاءت كالتالي :

« أخبرني أبي قال : سمعت محمد بن أبي عامر يوصي ابنه عبد الملك في مرضته تلك » .
« ويقول في جملة كلامه : يابني ، لست تجد أنصح لك مني فلا تعدين مشورتي : قد جرّدت
لك رأي ورويتي على حين إجماع من ذهني ، فاجعلها مثالا بين يديك » .
« قد وطأت لك مهادر الدولة ، وعدّلت لك طبقات أوليائها » .
« وغايرت لك بين دخل المملكة وخرجها ، واستكثرت من أطعمتها وعددها ، وخلفت
جباية تزيد على ما ينوبك لجيشك ونفقتك » .
« فلا تطلق يدك في الإنفاق ، ولا تقيّض لظلمة العمال ، فيختل أمرك سريعا ، وكل سرف
راجع إلى اختلال لا محالة ، فاقصد في أمرك جهدك » .
« واستببت فيما يرفع أهل السعاية إليك » .
« والرعية قد استقصيت لك تقويمها ، وأعظم منها أن تأمن البادرة ، وتسكن إلى لين
الجنبة » .

الجزئية الأولى :

« أخبرني أبي قال : سمعت محمد بن أبي عامر يوصي ابنه في مرضته تلك »
إذا كنا في الدراسة ، في الفقرة المتصلة بمصادر الوصية قد وجهنا الشكر لابن بسام في

احتفاظه بنص الوصية في ذخريته عندما نقل هو وابن الخطيب عن ابن حيان من كتابه الدولة العامرية ، فإن الشكر ذاته يوجه هنا إلى ابن حيان ، وإلى أبيه خلف اللذين احتفظا لنا بهذا الأثر التاريخي القيم . ولعل هذا الخبر ، ممّا يؤكد لنا أهمية الخبر الشفهي في الدراسات التاريخية التي هي دون ريب معين ورافد في حقل الدراسات التاريخية . ويحضرنا في هذا المقام ما قاله محمود علي مكّي ، وهو يقيّم الأخبار التي بثّها خلف بن حيان لابنه المؤرخ الكبير ، بما لهذه الأخبار من أهمية ، ذلك لأنها صادرة عن مصدر قريب من السلطة وصاحبها ، أعني المنصور ، فقد كان خلف كاتباً له كما سبق أن ذكرنا . يقول محمود علي مكّي : « وهذه الوصية وثيقة تاريخية سياسية من الطراز الأول إذ نجد فيها تسجيلاً لسياسة المنصور ، وخلاصة لأعماله ، وهي تكاد تكون حساباً ختامياً يقدمه الرجل للتاريخ ، ونصيحة لابنه ، ورسم للسياسة التي ينبغي أن يتبعها في الداخل والخارج »^(٢٧) .

الجزئية الثانية :

« ويقول في جملة كلامه : يا بني لست تجد أنصح لك مني ، فلا تعدن مشورتي : قد جرّدت لك رأي ورويتي على حين اجتماع من ذهني ، فاجعلها مثلاً بين يديك »^(٢٨) .

ليس غريباً ولا بدعاً أن يركز المنصور هنا على معنى واحد ، وهو تذكير ابنه والإلحاح عليه ألا يعدون مشورته ، أو وصيته كما ذكر ابن الخطيب ، وهو من يعرف ناصحاً أميناً ، هذه المشورة ، أو الوصية التي قدح لها الأب زناد فكره ، أو كما قال : جرّد لها الرأي والروية في لحظة حضور ذهني كامل ، قمين به أي الابن أن يحقق معنى الروية ، الذي هو النظر والتفكير في الأمور ، وهو ما جاء منضوياً في معنى الروية اللغوي^(٢٩) .

لكن هل اكتفى المنصور بهذا التوضيح والتأكيد على أهمية المشورة - الوصية - ؟ البتة فما زال يهيجس مصرّاً ملحّاً أن يجعلها مثلاً - أي قالباً يقدر على مثله^(٣٠) - بين يديه ، أو بين عينيه كما هو تعبير ابن الخطيب ، ولعله أوفق معنى فيما نحسب ، فليس أدل على مقدار أهمية الشيء من أن يضعه الانسان نصب عينيه ، أو حتى بين عينيه ، وهذا أول درس سياسي يلقيه الأب على الابن .

(٢٧) ابن حيان ، المصدر السابق ، القطعة الثانية ، الدراسة ، ص ١٤ .

(٢٨) عند ابن الخطيب ، نفسه ، ص ٨١ : « يا بني لست تجد أنصح لك ولا أشفق عليك مني فلا تعدن وصيتي ، فقد جرّدت لك رأي ورويتي على حين اجتماع من ذهني ، فاجعلها مثلاً بين عينيك » .

(٢٩) انظر : إبراهيم مصطفى وآخرون ، المعجم الوسيط ، ج ١ ، ص ٣٨٥ .

(٣٠) إبراهيم مصطفى وآخرون ، نفس المعجم أعلاه ، ج ٢ ، ص ٨٦٠ .

الجزئية الثالثة :

« قد وُطِّأت لك مهاد الدولة ، وعدَّلت لك طبقات أوليائها » .

كم سيكون لنا مع هذه الجزئية - على قصرها - من وقفة طويلة !! ، فيها نحن أولاء نجد المنصور يدلف إلى درس سياسي ثانٍ لا يقل أهمية عن الدرس الأول ، بل لعله هو الدرس الذي لابد للابن أن يعيه طويلاً ، فيعي الابن كيف تعب الأب حتى أقام هذا الصرح - الدولة - الشاخ الذرى ؟

تبدى لنا في هذه الجزئية سيمة من سمات رجال الدولة ، ولا سيما إذا كانوا مؤسسين ، وكأنه قدر هؤلاء الرجال المؤسسين للدول أن يحملوا معهم ، وهم قاب قوسين أو أدنى من التغييب في عجاج الثرى ، هموم بقاء وديمومة دولهم . أهو قدرهم ، أم هي هممهم العالية ؟ لسنا ندري ، وإن كان يخيل إلينا ، أنهما معا كذلك .

إننا نلمس في هذا التنف من الوصية نفساً وروحاً لرجل دولة مؤسس آخر ، ترك لابنه وصية سياسية لا تقل أهمية عن وصية المنصور لابنه عبد الملك . النفس والروح فيهما واحد ، العمق والتجربة السياسية فيهما واحدة كذلك ، بل يكاد يتشابه هذا التنف من وصية المنصور ، مع التنف الذي يقابله في الوصية الأخرى ، أعني بذلك الوصية التي تركها الخليفة الملك المؤسس للدولة الأموية بالمشرق ، معاوية بن أبي سفيان ، رضي الله عنه لابنه يزيد . لننظر إلى ما قاله الأب لابنه : « ... يابني إني قد كفيتك الرحلة والترحال ، ووطَّأت لك الأشياء ، وذُلَّت لك الأعداء ، وأخضعت لك أعناق العرب ، وجمعت لك في جمع واحد . وإني لا أخوف أن ينازلك هذا الأمر الذي استتبَّ لك ... الخ^(٣١) » . نفس الدرس ، ونفس الإحساس ، ونفس المهمة الواحدة .

أما كيف عدَّل المنصور لنفسه ، ثم لابنه عبد الملك وَمَنْ وراءه مِنْ الأبناء الدولة ، وكيف مهدَّ له ولهم طبقات أوليائها ؟ وأما كيف حاز الملك له وحده - وهو ما أُنْخَرْنَا الحديث عنه من قبل لحينه ، وإن كنا قد وقفنا على خطواته الأولى في الوصول لذلك ؟ فلعلنا أمام البسط الواسع لذلك ، والذي قُدِّم لنا في قالب روائي مليء بالانبهار ، لانجد عرضاً ، أو لنقل لوحة تعبيرية ، أجمل ولا أمتع من اللوحة التي رسمها ابن خلدون ، والتي سنوردها على طولها - في شيء من التصرف - حتى يتضح لنا كيف استطاع المنصور أن يقيم ذلك الملك الفسيح ؟ قال ابن خلدون^(٣٢) :

« .. فلما توفي الحكم^(٣٣) ببيع هشام ، ولُقِّب المؤيد^(٣٤) بعد أن قُتِلَ ليلتشد أخو الحكم المرشح لأمره

(٣١) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، مجلد ٣ ، ج ٦ ، ص ص ١٧٩ - ١٨٠ .

(٣٢) العبر ، ج ٤ ، ص ص ١٨٨ - ١٩٠ .

(٣٣) لم يمت الحكم إلا وكان محمد بن أبي عامر كما يقول ابن حيان ، المقتبس من أخبار بلد الأندلس ، القطعة -

تناول الفتك به محمد بن أبي عامر هذا بمالأة جعفر بن عثمان المصحفي حاجب أبيه ... فقتل محمد بن أبي عامر المغيرة وبايع هشام^(٣٥).

ثم سما محمد بن أبي عامر المتغلب على هشام لمكانه في السن^(٣٦)، وثاب له رأي في الاستبداد، فمكر بأهل الدولة، وضرب بين رجالها، وقتل بعضها ببعض ... فاستوزره - الضمير عائد لمحمد ابن أبي عامر - الحكم لابنه هشام كما ذكرنا. فلما مات الحكم خجبه^(٣٧) محمد وغلب عليه ومنع الوزراء من الوصول إليه إلا في النادر من الأيام يسلمون وينصرفون^(٣٨). وأرخص للجند في

— الرابعة، وتحتوي على أحداث ٥ سنوات من عصر الحكم المستنصر (٣٦٠ - ٣٦٤هـ)، تحقيق عبد الرحمن على الحجي، منشورات دار الثقافة، بيروت، سلسلة المكتبة الأندلسية رقم ٤ طبعة ١٩٨٣م، ص ٤٠، ١٠٦، ١٢٣: فتى الدولة وثقة الخليفة.

(٣٤) كان هشام يوم نودي به خليفة في شهر صفر سنة ٣٦٦هـ ابن إحدى عشرة سنة وثمانية أشهر، وكان لمحمد بن أبي عامر دور كبير في أخذ البيعة له، «علا له به شأن وصيت وتذاكره الناس طويلا» كما يقول ابن عذارى، نفسه، ج ٢، ص ٢٥٤، ٢٦٢.

(٣٥) من الطبيعي والخليفة الجديد صبي قاصر أن تتعارض المصالح وتباین المواقف، فما إن مات الحكم حتى بدا ذلك جلياً واضحاً. ففريق ويمثله فتیان القصر الخلافي من الصقالبة يرى في قبول خلافة صبي قاصر، خطورة ويتذرع بالمصلحة العامة التي تحمى صرف الخلافة إلى أحد إخوة الخليفة الحكم (المغيرة) - دون علمه - حتى لو أدى ذلك إلى التنكر لابن خليفته المتوفي، وكان هذا الفريق يأمل أن تكون له يد عند المغيرة لو قدر له أن يتولى الخلافة، وفريق يمثل المصحفي، ومحمد بن أبي عامر وغيرهما من رجالات الدولة يرى الحفاظ على الشرعية إحتراماً للعهد، وتكبساً من ورائها ولا سنيماً والخليفة صبي قاصر لا حول له. على كل حال انكشف أمر الفريق الذي أراد صرف الخلافة للمغيرة، وكانت النتيجة أن قتل المغيرة على يد محمد بن أبي عامر قطب تلك المجموعة أو الفريق، على الرغم من أن المغيرة أعلن أنه سامع مطيع، وعلى الرغم من عدم علمه بما اتفق عليه الصقالبة. عن هذه الأحداث انظر: ابن بسام، نفسه، ص ٥٧ - ٥٨. ابن الخطيب، نفسه، ص ٦٠.

(٣٦) قلّد الخليفة هشام المؤيد قبل أقل من إسبوع من خلافته محمد بن أبي عامر الوزارة، وأعفاه من بعض المناصب الثانوية وجعله رهن أمر الحاجب المصحفي كما يقول ابن عذارى، نفسه، ج ٢، ص ٢٥٤. وهذا يعني لنا في التحليل أن ابن أبي عامر بدأ خطواته في الاستبداد بأمر الدولة، وإن كان قد رضي أن يكون بأمر الحاجب المصحفي صاحب اليد الطولى في الدولة ولو إلى حين.

(٣٧) قد يفهم من كلام ابن خلدون هنا أن كلمة خجبه ربما تعني تولي محمد بن أبي عامر وظيفة الحجابة لهشام المؤيد في هذا الوقت المبكر، وهذا غير صحيح. فلم يتول محمد بن أبي عامر الحجابة إلا بعد تخلصه من الحاجب السابق: المصحفي - بأمر من الحيفة - سنة ٣٦٧هـ. انظر: ابن عذارى، نفسه، ج ٢، ص ٢٦٧، وعلى هذا فالمقصود بكلمة خجبه منعه بالمعنى الدلالي اللغوي وكما يدل عليه السياق.

(٣٨) إن ابن خلدون هنا إنما يقرر واقعاً حدث فعلاً، بيد أنه من حيث الترتيب الزمني للأحداث، لم يحدث إلا متأخراً وبعد تخلص محمد بن أبي عامر من خصومه جميعاً. أما عن الوزارة ومفهومها وهل هي خطوة أم -

العطاء^(٣٩) وأعلى مراتب العلماء .. وكان ذا عقل ورأي وشجاعة وبُصُر بالحروب ودين متين . ثم تجرّد لرؤساء الدولة ممّن عانده وزاحمه ، فمال عليهم وحطّهم عن مراتبهم ، وقتل بعضها ببعض ، كل ذلك عن أمر هشام وخطه وتوقيعه ، حتى استأصل بهم ، وفرّق جموعهم . وأوّل ما بدأ بالصقالية الحصيان الخدام بالقصر ، فحمل الحاجب المصحفي على نكبته ، فنكبهم وأخرجهم من القصر^(٤٠) ... ثم أصهر إلى غالب^(٤١) مولى الحكم وبالغ في خدمته والتّصّحّح له ، واستعان به على المصحفي فنكبه ومحا أثره من الدولة^(٤٢) ، ثم استعان على غالب بجعفر بن علي بن حمدون ... بمن

— لقب ، وهل هي تكليف أم تشريف ؟ فراجع : أحمد فكري ، قرطبة في العصر الإسلامي ، تاريخ وحضارة ، الإسكندرية ، منشورات شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٩٨٣ م ، ص ص ٢٩٢ - ٢٩٣ الذي استوعب كل الأقوال التي تردّدت عن ذلك .

(٣٩) إشارة إلى ملاسبات الغزوة الأولى للمنصور والتي كان سببها أن النصاري هاجموا في أعقاب وفاة الخليفة الحكم أملاك الدولة الإسلامية ، سنة ٣٦٦ هـ ، فتقاعس الحاجب المصحفي مدبّر دولة هشام - حتى ذلك الوقت - فتصدّى المنصور للقيام برّد هجومهم ، وهو ما نجح فيه : « فعظم السرور به ، وأخلص الجند له ، واستهلكوا في طاعته ، لما رأوه من كثرة جوده ، وكرم عشرته ، وسعة مائدته ، فأحبوه والتفوا به ، وكثر إحسانه إليهم ، وأفضاله عليهم إلى أن أدرك بهم سوله - وبلغ مأموله » كما يقول ابن عذاري ، نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٦٤ .

(٤٠) هذه أول غروة فض المنصور فيها غرّى المُلْك كما عبّر ابن حيان فيما نقله عنه ابن بسام ، نفسه ، ص ٦١ هو وغيره من مؤرخي المغرب والأندلس . وقد وضّح ابن حيان هنا كيفية تخلص محمد بن أبي عامر من هؤلاء الصقالية بشيء من التفصيل ، فليراجع هناك . والحق أن هؤلاء الصقالية كانوا مركز قوة في القصر الخلافي ، ومصدر إزعاج كذلك ، حتى أن الخليفة السابق الحكم المستنصر وهو الذي استكثر منهم وأحاط بهم رعايته ، قد شعر بخطورهم وأفصح عن ذلك ولكنه رأى الإغضاء عنهم (ابن عذاري ، نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٥٩) ، ولمّا مات الحكم ظهر خطورهم بوضوح عندما أرادوا أن يعينوا المغيرة بن الناصر - شقيق الخليفة الحكم - خليفة ويخلعون هشامًا الصغير على نحو ما مرّ في الحاشية رقم (٣٥) . ويقول ابن عذاري ، نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٥٩ : إنهم غدوا بعد موت الحكم أكثر جمعًا وأحد شوكة ، يظنون أن لا غالب لهم ، وأن الملك بأيديهم ، لذا كان طبيعيًا أن يبدأ بهم المنصور أولى خطواته في الاستئثار بالسلطة .

(٤١) غالب مولى الحكم ، هو غالب بن عبد الرحمن مولى الخليفة الناصر ، ثم ابنه الخليفة المستنصر يصفه ابن حيان بفارس الأندلس غير مدافع . وقد قلّده الخليفة المستنصر عدة مناصب قيادية : سياسية وعسكرية ، منها : القائد الأعلى - للجيش - ثم حاكم منطقة الثغر الأعلى وقاعدته مدينة سالم . أما في عهد الخليفة هشام المؤيد ، فقد غدا غالب الشخصية الثالثة - قبل أن يكتسح خصومه - بعد الخليفة والحاجب المصحفي - وقد جهد محمد بن أبي عامر في التودد إليه والتقرب منه لضرب خصمه القوي الحاجب المصحفي ، فتحالف معه ضده . وكانت بداية هذا الحلف ، موضوع الإصهار الذي يشير إليه ابن خلدون عندما تزوّج محمد بن أبي عامر من أستاذ بنت غالب فيما يمكن أن نسميه زواجًا سياسيًا للوصول لهدفه . انظر : ابن حيان ، نفسه ، القطعة الرابعة ، ص ٢١ ، ٢٤ ، ٦٩ ، ١٠٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٢ . ابن بسام ، نفسه ، ص ص ٦٣ - ٦٥ .

(٤٢) نكبة الحاجب المصحفي نكبة مشهورة فقد كانت ثاني غروة من غرّى الملك يفضّها محمد بن أبي عامر ، وهي -

كان معه من زناته والبربر (٤٣)، ثم قتل جعفر عماله (٤٤) ... ثم لما خلا الجو من أولياء الخلافة المرشحين للرياسة، رجع إلى الجند، فاستدعى أهل العدو من رجال زناته والبرابرة، فرُتب منهم جنداً، واصطنع أولياء، وعرف عرفاء (٤٥) فتغلب علي هشام وحجره (٤٦)، واستولى على الدولة، وملأ الدنيا وهو في جوف بيته مع تعظيم الخلافة والخضوع لها، ورد الأمور إليها. وترديد الغزو والجهاد. وقدم رجال البرابرة وزناته، وأخر رجال العرب وأسقطهم من مراتبهم (٤٧)، فم له

أخطر عروة، فقد كان جعفر بن عثمان بن نصر الملقب بالمصحفي من أعظم رجالات دولة الخليفة الحكم المستنصر، وكان كاتبه ووزيره. ثم لما تولى الخليفة هشام الخلافة، قدّمه للحجابة، وهو المنصب الخطير الذي يعادل منصب رئيس الوزراء حالياً. وكان نفوذه ونفوذه أسرته طاغياً، ما زال محمد بن أبي عامر يترصّ به في إطار سعيه الدؤوب للوصول إلى السلطة المطلقة حتى زاحمه في سلطته، ثم بدأ يضعف شأنه رويداً رويداً حتى جرّعه المرارة والغصة، وانهى الأمر باعتقاله ومصادرة أملاكه وأملاك أسرته، ثم قتل بعد ذلك سنة ٣٧٢هـ، وخلّص الأمر لمحمد بن أبي عامر إلى حين، وقد أطنبت المصادر الأندلسية في ذكر نكته وفي الإشارة إلى تغير الحال بعد العزة القعساء، وكيف يصح أن تكون دليلاً على تقلب أحوال الدول والنظم والأشخاص. انظر مثلاً: المقرئ، ج ١، ص ٣٩٦ - ٤٢١، ص ٦٠٠ - ٦٠٥، حيث استوعب أخبار هذه الحادثة ممّا جمعه مؤرخو الأندلس من ترجمة ابن حيان له.

(٤٣) بعد مقتل الحاجب المصحفي تبين لغالب بن عبد الرحمن خطورة محمد بن أبي عامر، فبدأ يظهر له العداوة، وجاء هذا متوافقاً مع رغبة المنصور في التخلص من هذا الخصم الخطير الذي يقف في طريق طموحه، فكان أن شجر بينهما النزاع المسلح الذي استعان فيه المنصور بجعفر بن علي بن حمدون الجذامي الأندلسي، أحد موالي الدولة الأموية، فاستقدمه بعساكره من العدو المغربية حيث كان يتولى حكم طنجة وسبتة هو وأخوه يحيى للخليفة هشام، فاستعان به على قتال غالب، وهو القتال الذي تفيض به الرواية الأندلسية التي استوعبها ابن الخطيب، نفسه، ص ٦١، ٦٥ عن كل المصادر الأندلسية التي قدّمت معلومات مقتضبة عن هذه الحادثة. وهكذا فقد كان التخلص من غالب العروة الثالثة التي فضّتها محمد بن أبي عامر.

(٤٤) دس المنصور لجعفر بن علي من قتله غيلة، وقد أظهر الحزن والندم على فقدته. عن هذه الحادثة وأسماء الذين تولوا الفتك بجعفر بن علي، أنظر: ابن عذارى، نفسه، ج ٢، ص ٢٧٩ - ٢٨١. المقرئ، نفسه، ج ١، ص ٤٠٠.

(٤٥) إشارة إلى مسألة استكثار المنصور من البربر، الذين جعلهم عماد جيشه، ممّا تحدّث عنه المؤرخون، انظر مثلاً: ابن عذارى، نفسه، ج ٢، ص ٢٧٤، ٢٧٩، ٢٩٣.

(٤٦) سنتحدث عن علاقته بالخليفة هشام فيما بعد.

(٤٧) إشارة إلى ما فعله المنصور بحق العرب ممّا أشار إليه المقرئ، نفسه، ج ١، ص ٢٩٣ بقوله «... وكان عرب الأندلس يتميزون بالقبائل والعمائر والبطون والأفخاذ إلى أن قطع ذلك المنصور ابن أبي عامر الداهية الذي ملك سلطنة الأندلس، وقصد بذلك تشتيتهم وقطع التحامهم وتعصّبهم في الاعتزاء، وقدم القواد على الأجناد، فيكون في جند القائد الواحد فرق من كل قبيل، فانحسرت مادة الفتن والاعتزاء بالأندلس إلّا ما جاء على غير هذه الجهة».

ما أراد من الاستقلال بالملك والاستبداد بالأمر ، وابتنى لنفسه مدينة فنزها وسمّاها الزاهرة^(٤٨) ، ونقل إليها خزائن الأموال والأسلحة . وقعد على سرير الملك ، وأمر أن يُحيا بتحية الملوك وتسمى بالحاجب المنصور^(٤٩) ونفذت الكتب والأوامر والمخاطبات بإسمه ، وأمر بالدعاء له على المنابر وكتب اسمه في السكة والطرارز ، وعمر ديوانه بما سوى ذلك . وجنّد البرابرة والمماليك ، واستكفر من العبيد والعلوج^(٥٠) للاستيلاء على تلك الرغبة ، وقهر من يطاول إليها من الغلبة ، فظفر من ذلك بما أراد ، وردّد الغزو بنفسه إلى دار الحرب ، فغزا اثنتين وخمسين غزوة^(٥١) في سائر ملكه لم ينكسر له فيها راية ، ولا قل له جيش ، ولا أصيب له بعث ، ولا هلكت سرية ، وأجاز عساكره إلى الغدوة ، وضرب بين ملوك البرابرة بعضهم في بعض ، فاستوثق ملكه بالمغرب وأذعنّت له ملوك زناته ، وانقادوا لحكمه ، وأطاعوا لسلطانته^(٥٢) ... وهلك المنصور أعظم ما كان ملكا^(٥٣) . وأشد

(٤٨) ترسّم المنصور خطى الملوك المؤسسين ، فبنى هذه المدينة الملوكية سنة ٣٦٨هـ وسكنها سنة ٣٧٠هـ (ابن عذاري ، نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٧٥) . وعن مدينة الزاهرة وما تكلف المنصور فيها وما جاءت عليه من أبهة في البناء والفخامة ، انظر : المقرئ ، نفسه ، ج ١ ، ص ص ٥٧٨ - ٦٠٢ . السيد عبد العزيز سالم ، قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس ، دراسة تاريخية وعمرانية أثرية في العصر الإسلامي ، بيروت ، منشورات دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، جزء ١ ، الجزء الأول في سنة ١٩٧٠م ، والجزء الثاني في سنة ١٩٧٢م ، الجزء الأول ، ص ص ٢٥٨ - ٢٦٤ .

(٤٩) كان لمنصب الحجابة في الأندلس شأن كبير وخطير غير شأنه في المشرق ، فقد كان الحاجب بمثابة رئيساً للوزراء ، وكانت مرتبته تلي مرتبة الأمير ، فالخليفة - في عهد الدولة الأموية بل وعهد ملوك الطوائف كذلك - انظر : أحمد فكري ، قرطبة في العصر الإسلامي ، ص ص ٢٩١ - ٢٩٣ أما ما أشار إليه ابن خلدون من تسمي محمد بن أبي عامر بالحاجب وتلقبه بالمنصور ، فهذا شيء طبيعي بعد أن خلا له الجو وغاب المنافس ، وغدا سيد الأندلس ورجلها القوي . وقد تسمى بالحاجب المنصور سنة ٣٧١هـ كما يقول ابن عذاري ، نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٧٩ .

(٥٠) تتبع ابن الخطيب ، نفسه ، ص ص ٩٩ - ١٠٠ موضوع الجيش الذي كوّنّه المنصور ، فبسط الحديث عن عدد الجند ، والفرسان ، والراجلة ، والمرتقة ، وعدة الجيش ... الخ ، فليراجع هناك .

(٥١) بل ٥٦ غزوة كما هو في الحاشية ١٥ . وعن هذه الغزوات ، انظر :

Dozy, R., *Spanish Islam: A History of the Moslems in Spain*, London 1913, pp. 497-500.

Cambridge Medieval History, Cambridge University, 1963, Vol.3, p.p. 425-426.

(٥٢) تابع المنصور الخليفين : الناصر والمستنصر في إدراك أهمية جعل المغرب الأقصى منطقة سيادة للدولة الأموية في إطار الصراع بين الدولتين الأموية والفاطمية الذي كانت ساحته بلاد المغرب ، وكان هذا يمثل عنده حجر الزاوية في سياسته الخارجية . عن هذا انظر : ابن عذاري ، نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٨١ وما بعدها . أحمد مختار العبادي ، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ، الاسكندرية ، منشورات مكتبة محمد أحمد بسيوني ، ط ١ ، ١٩٦٨م ، ص ص ٤٤ - ٨٢ .

(٥٣) لم يكتف محمد بن أبي عامر وقد أصبح سيد الأندلس الفعلي والوحيد آنذاك بمنصب الحجابة الذي قرن معه لقب المنصور ، بل رأى القيام بخطوة ذات مغزى سياسي كبير من ناحيتين : الأولى خاصة به ، وهي أنه

استيلاء^(٥٤) سنة أربع وسبعين وثلاثمائة^(٥٥) بمدينة سالم منصرفه من بعض غزواته ، ودفن هنالك وذلك لسبع وعشرين سنة من ملكه .^(٥٦)

حذف اسم الحجابة وأمر أن يكتب منه وإليه : المنصور ابن أبي عامر وفقه الله فقط بحذف اسم الحجابة ، وهذا لا يعني سوى أنه جعل الدولة ملوكية له وحده ، وهذا يشفع له أن يتلقب بألقاب السيادة والمُلك كما تلقب الخلفاء في المشرق والأندلس بألقاب خلافة . والناحية الثانية أنه رشّح ابنه عبد الملك للولاية بعده في نفس السنة التي ترك فيها الحجابة ، أي سنة ٣٨١ هـ ، والمقصود بالولاية ولاية العهد وليس هذا فحسب ، بل وخصه بحجابة الخليفة هشام المؤيد ، وأسند له القيادة العليا وسائر حُططه هو التي كان يتولّاها ، ثم قدّم ابنه الآخر عبد الرحمن للوزارة أو لعلنا نقول للمنصب الشرفي في الدولة - المملكة العامرية - وهذا لا يعني سوى تكريس جعل دولته مملكة عامرية خالصة تتوارث فيه وفي أبنائه على أن المنصور سيبادر سنة ٣٨٦ هـ إلى ترسيخ مظهر أخير من مظاهر الملوكية ، هو النص عليه صراحة فقد أمر « أن يُخصّ بتسويده من بين سائر الناس كافة في المخاطبات ، وأن يُرفع ذلك عن سائر أهل الدولة مع الاقتصاد في مراتب الأدعية ، فنُفذ الكتب بذلك ، وجرى العمل عليه بقية حياته ، وخطب هذا الوقت بالملك الكريم واستبلغ في تكريمه وتعظيمه » .

انظر : ابن عذارى ، نفسه ، ج ٢ ، ص ص ٢٩٣ - ٢٩٤ .

(٥٤) لله ما أبعد بين حالي محمد بن أبي عامر في بداية حياته شاباً فقيراً يكسب بعمله ، ثم عند موته : ملكاً أعظم ما يكون الملوك !! على أن ذلك مع تقدير الله سبحانه وتعالى أولاً وأخيراً ما كان إلّا بالخزم والإصرار في طلب المعالي ، وهو الدليل على أن النفوس إذا كانت كباراً تعبت في مرادها الأجسام . وهكذا فإن محمدًا ابن أبي عامر وإن كان قد نشأ فقيراً معدماً إلّا أنه كان يملك نفساً واستعداداً فطرياً لطلب كبير المعالي . ولقد احتفظت لنا بعض المصادر بأطروفة مثيرة حكي فيها عن المنصور أنه كان يتطلع منذ شبابه وقبل قدومه على الخليفة الحكم ، إلى ملك الأندلس وقيادة العسكر وأن ينفذ في الأندلس حكمه ، فذكروا أنه كان يفسح عن ذلك كثيراً لأصدقائه ، ليس هذا فحسب ، بل ويطلب منهم تحديد ، أو تسمية رغبتهم إذا ما آل الأمر إليه . وبالفعل فقد كان هذا هو ما تحقّق واقعاً ، فإذا بالمنصور يحقق لأصدقائه ما طلبوه حرفاً بحرف .

عن هذه الأطروفة انظر : عبد الواحد المراكشي ، المعجب ، ص ٤٧ . ابن الخطيب ، نفسه ، ص ٥٩ ، ٧٧ ، ٧٨ .

(٥٥) بل سنة ٣٩٢ كما أجمعت كل المصادر الأندلسية ، وابن خلدون هنا واهم ولا يمكن أن يتصور المرء أن في الأمر تصحيفاً بين السبعين والتسعين ، لأنه حتى سنة ٣٩٤ هـ مرفوضة فالإجماع هو على أنها سنة ٣٩٢ هـ .

(٥٦) لعل من المناسب أن نذكر هنا بأن المنصور بغزواته الكثيفة لأسبانيا النصرانية وممالكها المختلفة ، قد ترك صدى مفرغاً في أسبانيا وأوربا . وتركت وفاته هذه التي حدثت في سنة ٣٩٢ هـ رثة فرح حتى قال أحد الكهنة آنذاك والذي كتب في حوالاته لسنة ١٠٠٢ م : مات المنصور ودفن في الجحيم . انظر : Crow, J. Spain: The

Root and the Flowers, New York, 1963, P.63.

على أن عددًا من المؤرخين الأوربيين ، أسبان وغيرهم قد أفاضوا في ذكر المنصور بوصفه شخصية سياسية لامعة ، وأثنوا عليه . وحسبنا أن نشير إلى بعض منهم مثل : دوزي ، ولين بول وسكوت .

على هذا النحو عدّل المنصور الدولة ، وعلى هذا النهج مهّد طبقات الدولة والأولياء ، ودولة بهذا الوصف ، وبهذا الجهد ، وبالوسائل المشروعة وغير المشروعة التي اتخذت في سبيل قيامها ، حري بالابن أن يحافظ عليها إذن ، وحري به أن يضع هذه الوصية منه مكان الجارحة .

الجزئية الرابعة :

« وغازيت^(٥٧) لك بين دخل المملكة وخرجها ، واستكثرت لك من أطعمتها وعددها ، وخلفت جباية تزيد على ما ينوبك لجيشك ونفقتك » .

الحق إن المنصور بقدر ما كان سياسيًا لاعمًا بقدر ما كان اقتصاديًا ناجحًا ، كما أن الحق يقتضي القول بأنه كان صادقًا ودقيقًا في كل كلمة قالها في هذه الجزئية لابنه عبد الملك بشأن الحالة المالية للدولة العامرية : ميزانية وأمنًا غذائيًا - إن جاز استخدام هذا التعبير . ولقد عني ابن الخطيب^(٥٨) وهو الذي نقل عن ابن حيان صاحب كتاب الدولة العامرية ، دون ابن بسام بتتبع حالة دولة المنصور المالية - ربما كان ذلك طبيعيًا بحكم كونه رجلًا سياسيًا كما هو معروف - فكان أن قدّم لنا بلغة الأرقام ثبًا إحصائيًا لكل ما يتعلق بواردات الدولة : دخل ، خراج ، جباية ، أو الضرائب ، ثم نفقاتها : الجيش وعدده وعدته وميرته ، والأقوات الغذائية المختلفة ، ثم الثروة الحيوانية ... الخ . ويكفي أن نشير فقط إلى أن مبلغ الجباية في آخر أيامه حسبما نقل ابن الخطيب ٤ ملايين دينار ، وهذا دليل على نجاح سياسته الاقتصادية في المغايرة بين الدخل والخرج كما أراد لابنه أن يعيه ويتمثله في الإحتذاء .

الجزئية الخامسة :

« فلا تطلق يدك في الإنفاق ، ولا تقيّض لظلمة العمال ، فيختل أمرك سريعًا ، فكل سرف راجع إلى اختلال لا محالة ، فاقصد في أمرك جهدك » .

تبدو لنا في هذه الجزئية عدة معطيات : أولاها الحث على الاقتصاد في الإنفاق ، وهذا أمر متوقع ، فقد جاء متناغمًا مع توجيهات الجزئية السابقة التي وازن فيها المنصور بدقة بين واردات ونفقات الدولة . وثانيها يتعلق بدم الإنفاق الزائد والإسراف ، والمنصور في هذا لا يختلف عن غيره من الملوك والخلفاء الذين كانوا يحذرون أولياء عهودهم من هذا الداء ممّا أفرزته تجاربهم السياسية

(٥٧) اغتار : إنتفع ، وجلب الطعام ، يقال خرج فلان يغتار لأهله ، والغيار : الطعام المجلوب . إبراهيم مصطفى وآخرون ، نفس المعجم السابق ، ج ٢ ، ص ٦٧٤ .

(٥٨) نفسه ، ص ص ٩٨ - ١٠٣ .

الطويلة^(٥٩).

وثالثة المعطيات ممّا تتصل بهذه الجزئية ، فهي المتعلقة بنصيحة المنصور لابنه بألا يقيّض لظلمة العمال . وهاهنا ملمح مهم ، فالمنصور يؤكّد ، وقد توخى الدقة في تعبيره : لا تقيّض ، التي تعني فيما تعنيه الاشتقاقات المختلفة للكلمة لغويّاً : معنى السهر وعدم الإطمئنان في النوم^(٦٠) ، يؤكّد عليه ألا ينم ولا يطمئن به النوم لما قد يصدر من ظلم من بعض العمال ، فيختل أمره سريعاً . فلربما خان الأمين وغوى الولي . ولعل المنصور هنا يريد من ابنه أن يسير على سياسته في هذا الجانب ، إذ يشير ابن الخطيب^(٦١) ، فيما ينقله عن ابن حيان ، إلى أن المنصور كان له كتبة يقومون باستقصاء أموال الدواوين ، ويرصدون له ما يحدث ويجري بين الولاة . هذا درس يضاف إلى ما سبقه من دروس سياسية ، كما هو حلقة في سلسلة متصلة من الحلقات والدروس .

الجزئية السادسة :

« واستثبت فيما يرفع أهل السعاية إليك » .

لا يمكن لنا أن نمر بهذه الجزئية دون أن نوّكّد القول على أن مضمون السعاية والتميمة وضرورة الاستثبات فيها هو معنى مطروق^(٦٢) لدى الملوك والخلفاء لا يغيب عن أذهانهم وقعه ، ممّا تمخضت عنه تجربتهم السياسية الطويلة . والمنصور ، وهو في هذا المقام الذي حشد فيه رأيه ورويته لابنه عبد الملك يؤكّد على هذا المعنى ، بل لعله يلفت نظره - وإن لم يفصح له بذلك - إلى ما كان يفعله مع أهل السعاية هؤلاء ، أو أهل البطالة كما هو تعبير ابن الخطيب ، أي التعطّل ، ممّا كانوا يقومون به عندما يَشْتَوْنَ بأحد ما عنده . فلقد ذكر ابن الخطيب^(٦٣) أن من سياسة المنصور ، أنه كلما وصف له رجل بصفة ذميمة ، ولّاه ولم يأخذ برأيهم . وأن من عاداته ، ومع احتفاله بأمر التشاور والتناصح ، كان كثيراً ما يعمد إلى الرأي المخالف فيكون التوفيق دائماً حليفه في هذا . على أن ذلك فيما يبدو لنا ليس دليلاً على خبث طوية بقدر ما هو اجتهاد في رأي بدا لصاحبه أنه صائب .

(٥٩) انظر مثلاً على ذلك ما ساقه ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) في كتابه : عيون الأخبار ، شرحه وضبطه وعلّق

حواشيه ورّبّ فهارسه يوسف على الطويل ، بيروت ، منشورات دار الكتب العلمية ، مجلدان في ٤ أجزاء ،

(د . ت) (المجلد الأول ، ج ١ ، ص ٤٥٣ وما بعدها تحت عنوان كتاب السؤدد .

(٦٠) إبراهيم مصطفى وآخرون ، نفسه ، ج ٢ ، ص ٧٤٨ .

(٦١) نفسه ، ص ٧٧ .

(٦٢) عن السعاية ، انظر مثلاً ما كتبه ابن قتيبة ، عيون الأخبار - باب السعاية ، مجلد ٢ ، ص ٢٥ - ٣٠ .

(٦٣) نفسه ، ص ٧٥ .

الجزئية السابعة :

« والرعية قد استقصيت لك تقويمها ، وأعظم منهاها أن تأمن البادرة ، وتسكن إلى لين الجنة » .

ما فتىء المنصور يمضي في إلقاء دروسه السياسية على ابنه عبد الملك ، ولكم تذكرنا عبارة المنصور هذه بما قاله عبد الملك بن مروان لابنه وولي عهده : الوليد ، وهي : « يابني أعلم أنه ليس بين السلطان وبين أن يملك الرعية أو تملكه إلا حرفان : حزم وتوان^(٦٤) » !!

أما هو - المنصور - فالحق أنه ما انفك في مسيرته السياسية الطويلة يمسك بمهارة بين تحقيق مصالح الرعية من نحو في حزم ، وبين عدم التواني والتراخي عن مسببات الشغب والتهيج ، من نحو آخر . ذكر ابن الخطيب^(٦٥) - وكما كان له من فضل عظيم في حفظ شذرات من كتاب ابن حيان عن المنصور !! - أن كاتباً للمنصور عتب عليه إفراطه في السهر الذي يقضيه في قضاء حوائج الناس والتيقظ لأمرهم ، فقال له : « .. حارس الدنيا لا ينام إذا نامت الرعية ! لو استوفيت نومي لما كان في دور هذا البلد عين نائمة » . درس وأي درس !!

الفقرة الثانية :

جاءت الفقرة الثانية من الوصية ، مشتملة على الجزئيات التالية :

« وصاحب القصر قد علمت مذهبه ، وأنه لا يأتيك من قبله شيء تكرهه » .

« والآفة ممن يتولاه ويلتمس الوثوب باسمه ، فلا تنم عن هذه الطائفة جملة ، ولا ترفع عنها سوء ظن و تهمة ، وعاجل بها من خفتة على أقل بادرة » .

« مع قيامك بأسباب صاحب القصر على أتم وجه ، فليس لك ولا لأصحابك شيء يقيكم الحنث في يمين البيعة إلا ما تقيمه لوليها من هذه النفقة » .

« فأما الإنفراد دونه مع ما بلوته من جهله وعجزه عنه ، فإني أرجو أني وإياك منه في سعة ما تمسكنا بالكتاب والسنة » .

الجزئية الأولى :

« وصاحب القصر قد علمت مذهبه ، وأنه لا يأتيك من قبله شيء تكرهه » .

(٦٤) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مجلد ١ ، ص ٣٣ .

(٦٥) نفسه ، ص ٧٦ .

كان قد مضى على الخليفة هشام المؤيد ، وهو محجور مغلوب على أمره أزيد من ستة وعشرين عامًا ، وهو قانع بدوره الذي رسمه له المنصور ، وهو أنه ليس له من أمر الخلافة شيء سوى اسمها فحسب . بل جاء وقت فكر فيه المنصور أن يرغمه على أن يعهد له بالخلافة لولا أن أقلع بعد ذلك عن هذه الفكرة خشية سوء العواقب^(٦٦) .

وأيا ما كان الأمر ، فإن الخليفة بلغ من هوان الشأن عند المنصور أنه كان لا يستخدم اسمه هنا مقرونا بحقه من التَّجَلَّة والإحترام ، بل اكتفى بعبارة : صاحب القصر في الإشارة إليه . فمن الطبيعي إذن ألا يخشى المنصور بأسه ، وقد علم هو وابنه عبد الملك مذهبه ، ولسنا نحتاج إلى كبير وقت لنفتش عن مذهبه ، فهل هو إلا الخضوع والخنوع الذي لا يملك غيره ؟ من الطبيعي كذلك أن يُطْمَئِنَّ ابنه - علما بأنه يعرف ذلك دون ريب - في هذه اللحظة المصرية على أمر بدهي . ولعل ممَّا يؤكد صدق حدس المنصور ، هو أنه لمَّا بعث ابنه عبد الملك إلى قرطبة لشدّها ، فجاء وضبطها ، ثم دخل على الخليفة وعرفه كيف ترك أباه ، ثم ورد الخبر بعد ذلك بموت المنصور ، ركب عبد الملك إلى الخليفة ، فعرفه بموته ، لم يجد الخليفة سوى أن يظهر الإشفاق ، ثم يقره على ما كان عليه أبوه من سلطان ، ثم قدم عبد الرحمن أخوه بالعسكر « فاجتمع الشمل ، وتمكنت الطاعة ، وأيس الأعداء من دولة بني عامر ، وعلموا أنها وراثه^(٦٧) » .

الجزئية الثانية :

« والآفة ممَّن يتولاه ويلتمس الوثوب باسمه ، فلا تنم عن هذه الطائفة جملة ، ولا ترفع عنها سوء ظن وسمعة ، وعجِّل بها من خفتة على أقل بادرة » .

أما أن يكون التوجس طبعًا لدى المنصور ممَّن يتولى الخليفة من ذوي القرى ، وغيرهم من أهل القصر والدولة ، فذلك أمر طبيعي لديمومة دولته التي لا تقوم إلا بالاستبداد بالخليفة من جهة ، والتيقُّظ لكل بادرة تهدف إلى تغيير الوضع من جهة أخرى . لذا فهو متيقِّظ دومًا ، ويريد لابنه أن يكون كذلك فإذا بدرت من أحدهم بادرة ، فالأصوب أخذهم أخذًا شديدًا لا رخصة فيه مهما تضاعل ذنبهم ، بل إذا استطاع أن يأخذهم بالشبهة وسوء الظن فليفعل كما نظنه يريد أن يقول لابنه .

(٦٦) تفيض رواية ابن حزم (ت ٤٥٦ هـ) ، نقط العروس في تواريخ الخلفاء ، فصَّلَة من مجلة كلية الآداب ، جامعة فؤاد الأول - القاهرة الآن - المجلد الثالث عشر ، الجزء الثاني ، ديسمبر ١٩٥٢ م ، ص ٧٧ ، بقلم شوقي ضيف ، في ذكر هذا الخبر المهم جدًا ، والذي لم يروه سواه من المؤرخين الأندلسيين . والحق أن هذا الخبر ممَّا استقاه ابن حزم شفاهة عن أبيه الذي كان واحدًا من كبار رجال دولة المنصور ابن أبي عامر .

(٦٧) ابن بسم ، نفسه ، ص ٧٨ .

وعلى كل حال فقول المنصور هذا رد فعل مألوف معروف تعرفه طبيعة الاستبداد والتملك ولا غرابة فيه ، حتى وإن بدى لنا بعيدًا عن المثالية ، وهل هو إلا نتيجة لسياسة غير مثالية ابتداء ؟

ولكن هل هناك حوادث معينة لأناس التمسوا الوثوب بإسم الخليفة المحجور ؟ الحقيقة لا نملك فيما عدا الصدام الذي وقع بين المنصور ، ووالدة الخليفة السيدة صُبُح ، والذي أشار إليه ابن حيان فيما ينقله عنه ابن بسام عن الأموال المختزنة عندها ورغبة المنصور إنتزاعها منها ، وهو ما تحقق فعلاً^(٦٨) ، أقول فيما عدا هذه الحادثة التي أُلِّبَت عليه الخليفة - مع أن ذلك غير واضح^(٦٩) - لا نملك سوى نصوصاً متناثرة وإن كانت تدل على ذات المعنى ، لكنها لا تتحدّد أشخاصاً بعينهم ، من ذلك مثلاً ما قاله ابن الخطيب^(٧٠) على سبيل التقرير : « ... ولم يبق يدا يحذر بطشها إلا شلّها ، ولا عيناً بريية نظرها إلا فقأها » .

ونص آخر ، وهو مثل سابقه قد يكون له صلة ما بهذه الجزئية التي نعالجها ، فقد ذكر ابن الخطيب^(٧١) كذلك أن المنصور كان يتتبع كل من يرجف بانتهاؤ أمر الدولة العامرية من المنجمين وغيرهم - وبالتالي عودة الدولة المروانية بالضرورة - « فكان يمتعض لذلك ، ويذهب فيه بقطع الأعناق والألسنة بعد العقاب الأليم » ، وإن كنا لا نظن أن سبب هذه الشدة الإنكار على التنجيم وأهله وحده .

وأخيراً ، هناك نص وإن كنا قد استرشدنا ببعضه من قبل في الجزئية السابقة ، فإننا مدعوون إلى الوقوف ثانية عنده وعند خاتمته ، وهو النص الذي أجاب فيه على من نصحه بالإقلال من السهر ، والذي قال فيه : « لو استوفيت نومي لما كان في دور هذا البلد عين نائمة ! ولو كنت من صاحب القصر (وأشار إلى ناحية الخليفة) وهو مكان الشاهد على مثل مسافة بسطة ، لأحرمت النوم ! فكيف وإنما بيننا مدى صيحة^(٧٢) » ، هذا النص في إعتقادنا له مغزى ومغزى كبير جداً .

(٦٨) ابن بسام ، نفسه ، ص ص ٧٠ - ٧٣ .

(٦٩) نقول غير واضح ، لأن ابن حيان الذي أشار إلى قضية الأموال التي عند والدة الخليفة ، وإن كان قد صُدِّر الحديث عن هذه الحادثة بقوله « ... أول ذلك الوحشة الحادثة بين ابن أبي عامر والخليفة هشام ووالدته صُبُح ... » إلى أن مضى على الحادثة بتامها ، على الرغم من ذلك لم نتبين أي وحشة بين الخليفة شخصياً ، والمنصور ، بل تمهالك واضح من الخليفة ، وكره لما حدث ، ثم اعتراف لابن أبي عامر بالفضل والصواب في هذه الحادثة والكفاءة في الإضطلاع بالدولة . انظر : ابن بسام ، نفسه ، ص ص ٧٠ - ٧٣ .

(٧٠) نفسه ، ص ٦٥ .

(٧١) نفسه ، ص ٧٧ .

(٧٢) ابن الخطيب ، نفسه ، ص ٧٦ .

الجزئية الثالثة :

« مع قيامك بأسباب صاحب القصر على أتم وجه ، فليس لك ولا لأصحابك شيء يقيمكم الحنث في يمين البيعة إلا بما تقيمه لوليها من هذه النفقة » .

أما هذه ، فقد صدق فيها المنصور ، وبَرَّ ، ولقد أراد لولده أن يحتذي حذوه - وهذا ما كان فعلاً في أيام دولة ابنه عبد الملك حسبا سنشير من بعد - مع أنه يحيل إلينا أن المنصور هنا كان بفعله هذا كأنما يريد أن يخفف من ثقل الحساب الذاتي مع النفس ، الذي تشي به هذه العبارة ، مما فعله بالخليفة .

ومهما يكن فبين أيدينا نص لابن الخطيب^(٧٣) ، يشير إلى إصرار المنصور على القيام بحق الخليفة المادي ، أي التوسعة عليه في الإنفاق ، فعندما يصف ما فعله المنصور من الحجر على الخليفة قال ختماً لتلك الفقرة : « ... مع بَرٍّ من به وإيجاب حقه ، وإسداء رزقه ، والغيرة على حرمه ، والصون لحشمته ، وحفظ رسومه ، ومواصلة تفقده ومطالعة » .

الجزئية الرابعة :

« فأما الإنفراد دونه مع ما بلوته من جهله وعجزه عنه ، فإني أرجو أني وإياك منه في سعة ما تمسكنا بالكتاب والسنة » .

جاءت خطوات محمد بن أبي عامر في الاستبداد بالسلطة عبر خطين متوازيين فيما نحسب . خط أول : تَحْلِيَةُ الساحة من كل الطامعين الطامحين الذين يلتفون حول الخليفة ، وقد نجح في ذلك نجاحاً فاق التصور على النحو الذي أسلفنا الإشارة إليه فيما مضى .

والخط الآخر ، ويتمثل في الانفراد بالخليفة نفسه ، أو ما يمكن أن نسميه الإجهاز على الخليفة وإماتته وهو حي ، والذي مرَّ كما نحسب في عدة محطات أو أطوار ، كما رصدناها من المصادر الأندلسية :

- المخططة الأولى من سنة ٣٦٦ - ٣٦٨ هـ ، أي من وفاة الخليفة الحكم وحتى التخلص من الحاجب المصحفي .

وهذه المخططة الأولى في العلاقات بين ابن أبي عامر والخليفة هشام المؤيد رصدها لنا ابن خلدون^(٧٤) في تلخيصه الرائع السابق الذي ذكرناه من قبل ، والذي تستدعي الحاجة الآن استعادة

(٧٣) نفسه ، ص ٦٥ .

(٧٤) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٨٨ .

بعض فقراته المتصلة بهذا الموضوع . وهذه الفقرات هي :

• ثم سما لمحمد بن أبي عامر التغلب على هشام لمكانه في السن وثاب له رأي في الاستبداد .

• فلما مات الحكم حجه وغلب عليه ومنع الوزراء من الوصول إليه إلا في النادر من الأيام ، يسلمون وينصرفون .

- المخططة الثانية من سنة ٣٦٨ هـ - ٣٧٠ هـ . أي منذ الانتهاء من أمر الحاجب المصحفي ، ومن ثمَّ بناء مدينة الزاهرة وحتى قبيل التخلص من الوزير القائد الأعلى غالب بن عبد الرحمن . وقد استخدم المنصور وسائل عديدة على غاية من الغرابة في إهمال الخليفة والتضييق عليه وإظهار عجزه أمام الرعية ، وقد عبّر عن هذه العلاقة في هذا الطور الذي تناهى فيه سلطان ابن أبي عامر : ابن خاقان الأندلسي صاحب كتاب مطمح الأنفس ومسرح التأنس^(٧٥) . والحق فلا يهمننا من نص ابن خاقان الذي جاء مُشابهًا من نحو بنص ابن خلدون الذي أوردناه سابقًا سوى إشارته إلى أن الخليفة هشامًا فوّض محمد بن أبي عامر في أمر الملك ، وتخلّى له عنه لعبادة ربه . وقد أشاع هذا بين الرعية^(٧٦) .

- المخططة الثالثة من تاريخ القضاء على غالب بن عبد الرحمن سنة ٣٧٠ هـ وحتى سنة ٣٩٢ هـ التي توفي فيها هو أي المنصور بن أبي عامر ، وقد عرفت هذه المدة تلقبه بألقاب المملكة كما سبق أن عرفنا . وشكل العلاقة خلال هذه المخططة أو الطور ، وضّحها لنا المقرئ^(٧٧) فيما ينقله عن مصادره المختلفة حيث يقول : (حجر المنصور على هشام المؤيد بحيث لم يره أحد منذ ولي الحجابة ، وربما أركبه بعد سنين ، وجعل عليه برنسا^(٧٨) وعلى جواريه مثل ذلك ، فلا يعرف منهم ، ويأمر من ينحي الناس من طريقه ، حتى ينتهي المؤيد إلى موضع تنزهه ، ثم يعود ... وكان المنصور إذا سافر وكّل بالمؤيد من يفعل معه ذلك ، فكان هذا من فعله سببًا في انقطاع ملك بني أمية من الأندلس) .

تري ما الذي يمكن أن يطلق على هذا الحال ، سوى الإماتة البطيئة ؟ وهل يلام بعد ذلك هشام بالعجز ويرمى بالجهل ، وهما الأمران اللذان أراد المنصور أن يبرّر بهما إنفراده ومن ثم ولده

(٧٥) ابن خاقان (ت ٥٢٩ هـ) ، مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس - دراسة وتحقيق محمد علي شوابكة ، بيروت ، منشورات دار عمار ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م ، ص ٣٩٣ - ٣٩٤ .

(٧٦) ابن خاقان ، مطمح الأنفس ومسرح التأنس ، ص ٣٩٤ .

(٧٧) نفسه ، ج ١ ، ص ٥٩١ .

(٧٨) البرُّنس كما يقول إبراهيم مصطفى وآخرون ، نفسه ، ج ٢ ، ص ٥٢ ، كل ثوب رأسه منه ، ملتزق به ، كما يطلق على القلنسوة الطويلة .

بالأمر دون الخليفة ؟ ثم سؤال آخر هو : من ذا الذي أوصل الخليفة إلى هذه الحال إن لم يكن إلا المنصور وحده ؟ صحيح أن الخليفة الحكم المستنصر يُلام كذلك ، ولكن المنصور وتحت طغيان الرغبة الجامحة في الملك والسلطان هو الذي جعل أمر الخليفة الشرعي بهذه الصورة حتى يتنا لا نستطيع أن نتبين حكم التاريخ فيه ، فهو كما قال القاضي محمد بن يقيي بن زرب^(٧٩) للمنصور نفسه ، لما أردا صرف الخلافة إليه - أي المنصور - على النحو الذي سبق ذكره من قبل ، قال له لمّا اشتد في طلب ذلك : وصاحب الأمر ما شأنه ؟ فقال له : لا يصلح لهذا ، فقال له : يُرى ويُجرب ، فقال له - بحث واضح - أفي مسائل الفقه يريد أن يسأله ؟ قال : لا ولكن في مسائل السياسة وتدير المملكة . وكانت النتيجة أن غضب المنصور منه .^(٨٠) والحق أن هشامًا لم يجرب ، ولم يمنح الفرصة لكي يثبت أهليته أو يعجز عن ذلك .

ولذا فنحن لا نتفق مع المنصور في قوله تلك التي أراد بها أن يبرر فعلته وانفراده بالتدبير دون الخليفة ، كما لا نتفق مع ابن الخطيب^(٨١) فيما رمى به هشام من الضعف والتهالك ، والانشغال بتوافه الأمور . فهذا الأمر إنما كان في صغره . أما في كبره ، فقد يكون بوسعه أن يكون ذا شأن لو واثته الفرصة .

ومع ذلك فالحق يقال إن المنصور أدار بإجماع كل المصادر أمر الدولة التي نُسبت إليه^(٨٢) بكفاءة عالية ، وباقتدار . وحسبنا مثلاً هنا أن نشير إلى عبارة ابن الخطيب^(٨٣) القصيرة الجامعة المانعة ، وهو قوله : « إنه نهض بجد لا كفاء له » . كما أن من حق المنصور القول بأنه كان حريصاً على إظهار طاعته للخليفة - بعد أن أفلح عن حلمه بالخلافة بالحفاظ على الرابطة الشرعية ولو مظهرها فقط . « فلم يدع السمع للخليفة والإجابة »^(٨٤) ، وكان يقتل من يقتل بأمر الخليفة ويخطئه وتوقيعه ،

(٧٩) القاضي محمد بن يقيي بن زرب ، أحد فقهاء قرطبة والأندلس الأجلاء ، وقد تولى القضاء للمنصور بن أبي عامر سنة ٣٦٧ هـ ، توفي سنة ٣٨١ هـ .

انظر : النباهي ، أبو الحسن : علي بن عبدالله بن الحسن النباهي المالقي الأندلسي (كان حياً سنة ٧٩٣ هـ) ، كتاب المراقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا المعروف بتاريخ قضاة الأندلس . بيروت ، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع من سلسلة ذخائر التراث العربي ، (د . ت) ، ص ٧٧ - ٨١ .

(٨٠) راجع : ابن حزم : نطق العروس ، ص ٧٧ .

(٨١) نفسه ، ٥٨ .

(٨٢) انظر : ابن بسام : نفسه ، ص ٥٦ الذي يطلق هذا الوصف .

(٨٣) نفسه ، ص ٧٤ .

(٨٤) ابن خاقان ، مطمح الأنفس ومسرحة الناس ، ص ٣٨٩ .

هذا إلى جانب كتابة إسمه على السكة والطرز والدعاء له على المنابر كما مر بنا في حديث ابن خلدون^(٨٥) وكان المنصور كذلك يحرص على إطلاع الخليفة بكل خبر ، يرى من المصلحة له بالطبع أن يطلع عليه الخليفة الشرعي ويحصل منه على التأييد ، فمن ذلك حادثة ابنه عبد الله الذي تمرد عليه ، فكان أن قتله هو ومن معه ، ثم بعث برؤوسهم إلى الخليفة . «^(٨٦)

وفي حادثة والدته الخليفة بشأن المال التي عرضنا لها ، ركب بعد أن حاز المال إلى الخليفة يخبره بتفاصيل الخلاف بينه وبين والدته ، « فاعترف له الخليفة بالفضل والإضطلاع بالدولة » - وهل يملك غير هذا ؟! - ثم رأى أن النفوس تتطلع إلى رؤية الخليفة ، ولكي يسكت الحسدة ، فكان أن أخرج الخليفة في موكب خلافي مهيب ، « وسار هو بجانبه راكبا ، وأمامه الحاجب عبد الملك راجلا يمشي ، ثم بقية طبقات الدولة ... ما عجب منه من كثرتة » . «^(٨٧)

ينبغي أخيراً ألا نترك الجزئية الرابعة دون الوقوف عند الشعور الديني لدى المنصور الذي تدل عليه عبارة : ... ما تمسكنا بالكتاب والسنة . الحق أن المنصور كان ذا دين متين كما يقول ابن خلدون^(٨٨) . ويقول عنه ابن الأثير « كان عالماً محباً للعلماء ، يكثر مجالستهم وينظرهم . وقد أكثر العلماء ذكر مناقبه وصنّفوا لها تصانيف كثيرة ... وكان حسن الاعتقاد^(٨٩) ، ولكن هذا لا يعني أنه لم يكن سياسياً يغلب المصلحة الخاصة أحيانا ، ولكن بصفة العموم كان أقرب إلى التمسك بأهداب الكتاب والسنة ، وكان حريصاً على إظهار ذلك^(٩٠) . ويقول ابن عذاري : «^(٩١) إن المنصور خطب بيده مصحفاً وكان يحمله معه في أسفاره يدرس فيه ويتبرك به . ويقول في موضع آخر « وكان المنصور مُتَشَبِّهاً بصخرة باطنه ، واعترافه بذنبه ، وخوفه من ربه ، وكثرة جهاده ، وإذا ذُكِرَ بالله ذكر ، وإذا خُوف من عقابه ازدجر ... وكان عدل المنصور في الخاصة والعامة ، وإطراحه المهاودة ، وبسطه الحق على الأقرب فالأقرب من خاصته وحاشيته ، أمراً مضروب به المثل » .

(٨٥) راجع قبل ، ص ١٥ .

(٨٦) ابن عذاري ، نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٨٤ .

(٨٧) ابن خلدون ،

(٨٨) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٨٩ .

(٨٩) ابن الأثير (ت. ٦٣٠هـ) ، الكامل في التاريخ ، غني بمراجعته أصوله والتعليق عليه نخبه من العلماء ، بيروت ، منشورات دار الكتاب العربي ، ط ٣ ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م ، ١٠ أجزاء ، الجزء السابع ، ص ص ٢١٧ - ٢١٨ .

(٩٠) انظر ابن عذاري ، نفسه ، ج ٢ ، ص ص ٢٩٢ - ٢٩٣ حيث الإشارة إلى ضيق المنصور بالفلسفة والجدل بالاعتقاد والتنجيم ، وكل ما فيه استخفاف بالشريعة وإحراقه للكتب التي تحتوي على ذلك بمحضر العلماء .

(٩١) نفسه ، ج ٢ ، ص ص ٢٨٨ - ٢٨٩ .

الفقرة الثالثة :

نصت الفقرة الثالثة من الشق السياسي من الوصية على الآتي :

« والمال المخزون عند والدتك » .

« هو ذخيرة مملكتك ، وعدة لحاجة تنزل بك ، فأقمه مقام الجارحة من جوارحك التي لا تبذلها إلا عند الشدة ، تخاف منها على سائر جسدك ، ومادة الخراج غير منقطعة عنك بالحالة المعتدلة » .

الجزئية الأولى :

« والمال المخزون عند والدتك » .

لسنا على علم بهذا المال الذي يتحدث عنه المنصور هنا فلا نعرف عنه شيئاً ، إذ لم تدلنا المصادر على أي إشارة له ، وإن كان هذا الأمر ليس في غرابة ، فمن المألوف إخفاء الأموال لمواجهة أي خطر قد يحدق بالدولة . ولكن هل يمكن لنا أن نستنتج هنا فنقول : لعل المقصود بهذا المال ، هو المال الذي إنتزعه المنصور غضباً من السيدة صُبُح والدة الخليفة ، وهو مبلغ كبير جداً يصل إلى بضعة ملايين ، ممّا اعتبره المنصور حقاً عامّاً للدولة؟^(٩٢) .

الجزئية الثانية :

« هو ذخيرة مملكتك ، وعدة لحاجة تنزل بك ، فأقمه مقام الجارحة من جوارحك التي لا تبذلها إلا عند الشدة ، تخاف منها على سائر جسدك ، ومادة الخراج غير منقطعة عنك بالحالة المعتدلة » .

هذا درس سياسي مهم في جملة الدروس السياسية التي طالما كان الأب يوجّهها لابنه . والمنصور هنا كأنه كان يتوقع حدوث مكروه لدولته ولأسرته ، فأخفى المال عند زوجه ، ولتأداهمه الموت هنا ، ومع إصراره بل رسمه للسبيل التي تهيء لابنه قيادة المركب الذي سيتأثر بفقد قبضانه لا محالة ، كان ينظر من طرف خفي إلى أن الأمور قد تكون أقوى من قدرات ابنه ، فخبأ له المال الذي يُفيد هنا كما هو الحال في معظم الأحيان ، هذا المال الذي يجب أن يحرص عليه حرصه على الجارحة من جسده - وهي العضور العامل من أعضاء الجسد^(٩٣) - إضافة إلى مادة الخراج التي لن تنقطع بمعدّها السنوي ، هذا إذا كان الأمر مجرد ثورات هنا وهناك ، أما إذا كان الأمر إزالة للدولة جُملة ،

(٩٢) ابن بسم ، نفسه ، ص ٧١ ، ٧٣ .

(٩٣) إبراهيم مصطفى وآخرون ، نفسه ، ج ٢ ، ص ١١٥ .

واتسع الخرق على الراقع كما يقال ، ففي المال المخزون ما ينفع الإبن حال إستعادته للأمر وللدولة ثانية ، بحسب ما تبين لنا صلته - أي هذا التحليل - بالفقرة الرابعة من الشق السياسي من الوصية .

الفقرة الرابعة :

نصّت الفقرة الرابعة من الشق السياسي للوصية على الجزئيات التالية :

« فإن إنقادت لك الأمور بالحضرة ، فهذا وجه العمل ، وسبيل السيرة » .

« وإن إعناصت عليك فلا تُلقين بيدك إلقاء الأمة ، ولا تطيبك وأصحابك السلامة ، فتنسوا مالكم في نفوس بني أمية وشيعتهم بقرطبة ، فإن قاومت من توثّب عليك منهم فلا تذهل من الحزم فيهم » .

« وإن خفت الضعف ، فانتبذ بخاصتك وغلماذك إلى بعض الأطراف التي حصّتها لك ، وأختبر غدك إن أنكرت يومك » .

« وإياك أن تضع يدك في يد مرواني ما طاوعتك بنانك ، فإني أعرف ذنبي إليهم » .

الجزئية الأولى :

« فإن إنقادت لك الأمور بالحضرة ، فهذا وجه العمل - وسبيل السيرة » .

مع أن المنصور قد رسم فيما مضى من جزئيات الوصية لابنه ما يراه صالحاً من السبل التي تكفل استقرار الأوضاع له ، وفي مقدمتها كيفية التعامل مع الخليفة إلّا أنه يظل مع ذلك يشعر بشيء من القلق ، وإن كان شعوره الداخلي يميل إلى أن الأمور ستنقاد لابنه في الحضرة ، وستمضي دون شائبة ، ويكفي الله المؤمنين القتال . وهذا ما تفصح عنه هذه الجزئية . وبالطبع فإن المقصود بالحضرة : العاصمة قرطبة .

الجزئية الثانية :

« وإن إعناصت عليك فلا تُلقين بيدك إلقاء الأمة ، ولا تطيبك وأصحابك السلامة ، فتنسوا مالكم في نفوس بني أمية وشيعتهم بقرطبة ، فإن قاومت من توثّب عليك منهم فلا تذهل من الحزم فيهم »^(٩٤) .

(٩٤) عند ابن الخطيب ، نفسه ، ص ٨٢٢ : « وإن إعناصت عليك فلا تلقين إلقاء الأمة ، ولا تبطر بك وبأصحابك النعمة والسلامة ، فتنسوا مالكم في بطون بني أمية وشيعتهم بقرطبة ، فإن قاومت من توثّب عليك منهم فلا تذهل عن الحزم فيهم » .

هنا مجموعة من الدروس والمواقف والمشاعر الأبوية الجياشة ، ثم هاهنا حالات لا بد منها من الضعف البشري وإن بدا مُغلَقًا بقفازات حديدية ، ثم هاهنا عمق التجربة أو الرؤية السياسية . يُصافحنا في البداية درس سياسي مهم يمحض فيه الأب الابن كل ما تحمله كلمة النصيح من معان ، حسبما هو واضح في هذه الجزئية والتي تليها . فالأب يعرف تمامًا - كما لا بد للابن أن يعرف كذلك - أي ضرر ألحقه ببني أمية ، البيت الذي ظلَّ الحكم قهيم متوارثًا من سنة ١٣٨ هـ ، حيث نجح عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان^(٩٥) في تأسيس دولة لبني أمية في الأندلس حتى وفاة الخليفة الحكم سنة ٣٦٦ هـ ، ثم إذا بها نهبًا مُستباحًا على يد شخص غريب ، تسلَّط واستبدَّ ، حتى عفى رسم الدولة الأموية . هذا شيء ، والشئ الآخر ما لحقهم هم أنفسهم من الإذَى في عهده ، ولذا فليس غريبًا أن يتوقَّع أن تكون ردَّة فعلهم عنيفة عنف فعله هو ، سواء بسواء .

من هنا نراه يرسم لابنه عبد الملك سلسلة من الخطوات في هذه الجزئية والتي تليها ، فهو :
- يؤكد عليه بالأَّ يستسلم أبدًا ، ولا يضعف أو يخنخع خنوع النساء والجواري فيما لو تحرك بنو أمية وثارَت الثائرة .

- أما إذا لم يثر هؤلاء ، فإن السياسة تقتضي توخِّي أقصى درجات الحذر ، فلا يغفل البتة ، ولا تبطره - أي لا تستخفه^(٩٦) النعمة والسلامة كما هي عبارة ابن الخطيب ، والتي نحسبها أدق من كلمة : تطبيق الواردة عند ابن بسام ، والتي يبدو أنها محرَّفة ومصحَّفة من كلمة : تبطره . عليه ألا تستخفه السلامة فينسى هو وأصحابه ما يعتلج في نفوس بني أمية عليه وعلى أسرته ودولته .

- أو لعله لا يحدث شيء من ذلك البتة ، وإنما تحدث حركات محدودة من قبل نفر من بني أمية ، فإياه إياه من التهاون في ضربهم بحزم حتى يكونوا عبرة لغيرهم .

على أن الأب لا يغفل أن يحتاط مع ذلك لابنه عبد الملك ، فيستدعي مواليه من الفتیان الصقالية فيلقِي عليهم من معسول الكلام في الوصية التي سبق لنا أن أوردناها^(٩٧) ما يتضمَّن الكثير من معاني الاستعطاف والاستجداء فهو :

(٩٥) عن عبد الرحمن الداخل وعهده ، انظر : إبراهيم ياس خضير الدوري ، عبد الرحمن الداخل في الأندلس وسياسته الخارجية والداخلية ، حيث استوعب كل ما كتب عن عبد الرحمن في المصادر والمراجع ذات الصلة ، وهو عبارة عن رسالة علمية عالية ، كما جاء في صفحة ٧ وما بعدها ، بغداد ، منشورات دار الرشيد للنشر ، ١٩٨٢ م .

(٩٦) عن هذا المعنى اللغوي لكلمة تبطره ، انظر : إبراهيم مصطفى وآخرون ، نفسه ، ج ١ ، ص ٦٠ .

(٩٧) انظر قبل ، ص ٩ .

- يدعوهم إلى شدّ أزر عبد الملك مولاهم وسيدهم ، أو الوقوف مع أخيه عبد الملك ، وهي عبارة لها من الدلالة ما لها .
- ثم وفي محاولة تأكيدية لترغيبهم وتمنياتهم ، يعود إلى الاستعطاف والاستجداء ، وهو ما تفصح عنه العبارة التالية : « .. فليس يرأسكم بعدي أشفق عليكم من ولدي » .
- على أنه وقد أقنع نفسه باستجابة هؤلاء الفتيان الصقالية لنداءاته العاطفية هذه ، يرى أن أفضل ما يمكن فعله لو حدث مكروه أن يكونوا وعبد الملك ابنه على قلب رجل واحد .
- ولئن كانت هناك أحقاد ، فلينساها الجميع ، حتى لا يفيل ، أي حتى لا ينفلت الأمر فيهم فيعدو مسلوبًا كما يدل عليه المعنى اللغوي لكلمة يفيل^(٩٨) ، إذ هذا الأمر هو : جماع وملاك أمرهم .

الجزئية الثالثة :

- « وإن خفت الضعف ، فانتبذ بخاصتك وغللمانك إلى بعض الأطراف التي حصّتها لك ، واختبر غذك إن أنكرت يومك » .
- مازال هاجس القلق على الدولة وعلى أسرته يطارد المنصور ، وهو في هذه الحالة المرضية ، ولذلك يشير على ابنه عبد الملك إن شعر بأن الظروف أقوى منه أن يرحل بأسرته وغلمانه إلى المعقل الذي حصّنه له . والحق أن المصادر لم تدلنا على هذا المعقل الذي هيأه الأب تحسبًا لأسوأ الاحتمالات ، ولكن بالطبع يهمننا من هذا الخبر مغزاه التاريخي المهم ، الذي يتّضح من خلاله أن المنصور مع قوته وبطشه ونفوذه الطاغى لا يعدو أن يكون في النهاية بشرًا ، ينتابه كل ما ينتاب البشر من مشاعر وأحاسيس .

الجزئية الرابعة :

- « وإياك أن تضع يدك في يد مرواني ما طاوعتك بنانك ، فإني أعرف ذنبي إليهم » .
- قبل أن نعرض إلى تحليل هذه الجزئية ، يحسن بنا أن نورد الجزئية المماثلة لها والتي وردت في وصية المنصور لفتيانته الغلمان العامرين ، وهي الجزئية التي أشرنا الحديث عنها . فتأخيرها يأتي في إطار جهدنا الانتقائي في ترتيب جزئيات وصيتي المنصور لا على الأساس الأصلي الذي وردت خلاله ، وإنما لما يخدم غرضنا في التحليل .

(٩٨) انظر : إبراهيم مصطفى وآخرون ، نفسه ، ج ٢ ، ص ٧٠٦ .

قال المنصور لغلمانه « ... ولا تغرركم بوارق بني أمية ، ومواعيد من يطلب منهم شتاتكم ، وقدروا ما في قلوبهم وقلوب شيعتهم بقرطبة من الحقد عليكم » .^(٩٩)

لعل السؤال الذي يفرض نفسه تلقائياً هنا : هل سبب تحذير المنصور لابنه عبد الملك في الجزئية الخاصة به بالأب لا يضع يده في يد مرواني ، ثم التهوين والتقليل من بوارق ، أي تهديدات وتوعدات^(١٠٠) بني أمية كما جاء في وصيته لغلمانه الفتيان العامرين ، لأنه - أي المنصور - اغتصب الخلافة عن الخليفة الشرعي ، وهو الأمر الذي سيفقد لهم إرثهم فيها ؟ الاجابة : نعم ، ولكن مع كبر هذا الفعل ، فقد كان ذنب المنصور عندهم ذنباً أي ذنب . ولتض مع المقرئ^(١٠١) مثلاً ، وهو يورد لنا أخباراً مهمة عن طبيعة العلاقة بين المنصور وبني أمية .

- بادر المنصور بقتل أحد أبناء البيت الأموي ، وهو عبد الرحمن بن عبد الله ابن الخليفة الناصر لدين الله ، لسعيه في الخلاف ، أو الخلافة كما وجدها المحقق إحسان عباس في أحد نسخ النسخ المخطوطة .^(١٠٢) وهي أدق .

- كان كثيراً ما ييدي استهتاره وعدم اكترائه ببعض أبناء البيت الأموي مما احفظهم عليه^(١٠٣) .

- وخبر ثالث على غاية من الأهمية نوره بنصه ، فذلك أبلغ من تحويرنا للنص . يقول المقرئ^(١٠٤) في سياق حديثه عن معاملة المنصور للخليفة ، وهو الأمر الذي أوردناه من قبل ، يقول : « ... وأخذ مع ذلك في قتل من يخشى منه من بني أمية خوفاً أن يثوروا به ، ويظهر أن يفعل ذلك شفقة على المؤيد ، حتى أفنى من يصلح منهم للولاية ، حتى فرق باقهم في البلاد ، وأدخلهم زوايا الحمول ، عارين عن الطراف والتلاد »^(١٠٥) وربما يسكن بعضهم البادية ، وترك مجلس الأبهة وناديه ، حتى قال بعض من ينقم على المنصور ذلك الفعل من قصيدة :

(٩٩) راجع قبل ، ص ٩ .

(١٠٠) عن هذا المعنى اللغوي لكلمة : بوارق ، انظر : إبراهيم مصطفى وآخرون ، نفسه ، ج ١ ، ص ٥٠ .

(١٠١) نفسه ، ج ١ ، ص ٤٣٧ .

(١٠٢) راجع المقرئ ، ج ١ ، حاشية رقم (٢) ، ص ٤٣٧ .

(١٠٣) المقرئ ، نفسه ، ج ١ ، ص ص ٥٩٠ - ٥٩١ .

(١٠٤) نفسه ، ج ١ ، ص ٥٩١ .

(١٠٥) الطراف ، جمع طريف : الطيب النادر ، والمستفاد من المال حديثاً ، أما التلاد ، وهي جمع تليد : فهو المال

الأصلي القديم ، انظر : إبراهيم مصطفى وآخرون ، نفسه ، ج ١ ، ص ٨٦ ، ج ٢ ، ص ٥٦٢ .

أبني أمية أين أقمار الدجى
منكم ؟ وأين نجومها والكواكب ؟
غابت أسود منكم من غابها
فلذلك حاز الملك هذا الثعلب

- وخبر رابع يورده ابن الخطيب^(١٠٦) في تبيان الحالة البائسة لبني أمية مع المنصور : قال : « .. وأمر المروانية مع ذلك بلزوم منازلهم في المدينة ، وحظر عليهم الركوب والخروج رأساً إلا لضرورة ، ووكل بهم ثقات من مشيخة الفتيان الحكيمين^(١٠٧) على دول متعاقبة ، يطالعون ما ينكرونه من أجوالهم ، وأخذهم بتفريق من حولهم إلا لمن يأذن فيه من غلام أو وكيل أو معلم ، أو طبيب ، وحذّروهم صحبة سواهم من الناس ، وألزمهم القصد في أمورهم والإقبال على ما يعينهم ، وكان يأخذهم معه إلى الغزوات ، حتى خشعوا واقتصروا على بيوتهم ، وأهملتهم أنفسهم » .

أبعد هذا يجرؤ الابن أو حتى الغلمان على وضع أيديهم في يد مرواني ؟ الواقع أن هذا الدرس ، هو أهم وأعظم درس سياسي ينبغي على الابن أن تعيه منه أذن واعية . وبالفعل فقد استوعب عبد الملك الوصية تماماً كما تؤكد المصادر ، ممّا سنعرض له من بعد .

الشق الأسري

بوسعنا القول إن هذا الشق هو أقل حجماً من الشق السياسي من الوصية ، وهذا شيء طبيعي ، ولذا فإننا سنفتقد هنا التبويب الذي انتهجناه من قبل والقاضي بتقسيم شق الوصية السياسي إلى فقرات ، وهكذا لن يكون عندنا سوى فقرة واحدة نستطيع تجزئتها إلى جزئيتين هما :

« وأخوك عبد الرحمن قد صيرت إليه في حياتي ما رجوت أني قد خرجت له فيه عن حقه من ميراثي ، وأخرجته عن ولاية الثغر ، لئلا يجد العدو مساعاً بينكما في خلاف وصيتي ، فيسرع في نقض أمري ، وتجلس الفاقة على دولتي . وقد كفيتك الحيرة فيه ، فاكفه الحيف منك » .

« وكذلك سائر أهلك فيما صنعت فيهم بحسب ما قدّرت به خلاصي من مال الله الذي في يدي . وخلافتك بعدي أجدى عليهم ممّا صرفته ، فلا تضعي أمر جميعهم . والحظهم بعيني ، فإنك أبوهم بعدي ، فخرج ذكورهم باستخدامك . والحف إنائهم جناحك . جبر الله جماعتهم ، وأحسن الخلافة عليكم » .

(١٠٦) نفسه ، ص ٧٧ .

(١٠٧) لعله يقصد فتيان الخليفة الحكم المستنصر .

الجزئية الأولى

« وأخوك عبد الرحمن قد صيرت إليه في حياتي ما رجوت أني قد خرجت له فيه عن حقه من ميراثي ، وأخرجته عن ولاية الثغر ، لثلا يجد العدو مساعًا بينكما في خلاف وصيتي ، فيسرع في نقض أمري ، وتجلب الفاقة على دولتي ، وقد كفيتك الحيرة فيه ، فأكفه الحيف منك » .

نحن هنا في هذا الشق الأسري من الوصية قد لا يهمننا كثيرًا أمره ، فرغم حرارة المشاعر ، وهي مشاعر أبوية جياشة غير مستغربة ، لا يهمننا منها مع الإحترام لها إلا ما قد ينعكس سلبًا على وضع الدولة العامرية السياسي . وهو أمر لم يقع بفعل تحوط الأب الداهية للأمر حسبما هو واضح في هذه الجزئية والتي تليها . وعلى أية حال ، فإن المنصور ، وهو يودّع الدنيا كان لا بد له وقد ترك لابنه وولي عهده عبد الملك وصية سياسية ، أن يثني بوصية أسرية جامعة أخرى .

والساسة عموما ومؤسسو الدول خاصة ، هم خير من يعرف مدى ما تتركه الخلافات الأسرية بين الإخوة من آثار مدمرة للصرح الذي تعبوا في إقامته . والمنصور وهو واحد من هؤلاء الساسة المؤسسين نراه هنا يتحسّب لِمَا قد يحدث بين ابنه : عبد الملك وعبد الرحمن ، وهكذا نراه يبادر إلى اتخاذ عدة خطوات رآها كفيلة بتوفير جو أخوي غير مضطرب :

• خص عبد الرحمن بقدر من المال - لم تُرشدنا المصادر إليه - رأى أنه يعادل حقه في ميراثه .

• ولّاه على ولاية الثغر - وإن كنا لا نعلم متى وأين حدث ذلك ؟ - قطعاً مادة الشقاق بينهما ، وهو الشقاق الذي لو حدث ، فسيكون سببًا في تصدع كيان الدولة العامرية أو حدوث الفاقة ، أي الداهية^(١٠٨) التي يخشاها الأب .

• وأخيرًا يؤكد على إبنه عبد الملك ، ولا سيما قد كفاه الحيرة في أمره فيما حسب أنه قمين بعدم وقوع الخلاف بينهما ، أن يكفيه حيفه أو عسفه منه .

هذا كل ما يمكن أن يقال عن هذه الجزئية ، ويمكن الإضافة إلى هذا أن المصادر لم توضّح لنا أن هناك خلافًا أو تنافسًا كان قائمًا بين الأخوين ، كما يمكن القول كذلك إن المصادر لم تزودنا بأي خبر عن حدوث خلاف بين الأخوين بعد وفاة الأب ، فلقد كانت العلاقات بينهما حسنة ولم تشبها شائبة ، اللهم إلا ما يقال عن أن عبد الرحمن - تعجلًا منه لأمر الملك والاستحواذ عليه - قد دسّ السم لأخيه عبد الملك - وهو أمر لم تتبيّن حقيقته فعلا - ، فقد أذاعت أم عبد الملك الذلفاء أن ابنها عبد الملك مات مسمومًا على يد أخيه عبد الرحمن^(١٠٩) .

(١٠٨) الفاقة : الداهية . إبراهيم مصطفى وآخرون ، نفسه ، ج ٢ ، ص ٧٠٤ .

(١٠٩) انظر تفاصيل ذلك عند ابن عذارى مثلاً ، نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٧ ، ٥٢ ، وما بعدها .

« وكذلك سائر أهلك فيما صنعت فيهم بحسب ما قدرت به خلاصي من مال الله الذي في يدي . وخلافتك بعدي أجدى عليهم ممّا صرفته ، فلا تضيع أمر جميعهم . والحظهم بعيني ، فإنك أبوهم بعدي ، فخرج ذكورهم باستخدامك . والحف إنائهم جناحك . جبر الله جماعتهم ، وأحسن الخلافة عليكم » .

لا نملك في الواقع أي معلومات عن أسرة المنصور ، سوى ما جاء عن الولدين عبد الملك وعبد الرحمن ، وفيما عداهما لا ندري عن هؤلاء الأبناء ، أولادًا وبناتًا ، الذين ورد ذكرهم في الوصية شيئًا . هؤلاء الذين جهد المنصور أن يوصي ابنه عبد الملك في حفظ حقوقهم جميعًا . مع حرصه الشديد على أن يكون ابنه عبد الملك خليفته فيهم ، وأن يجهد بكل ما أوتي أن يكتفهم عنايته ورعايته . نعم نستدرك فنقول إننا وجدنا عند المقرئ ذكرًا لبعض كرائم المنصور ، وهي الصيغة التي أطلقها ، وهو يتحدث عن هؤلاء الكرائم وما قيل في وصفهن شعرا ، وهي معلومة لا تهمنا كثيرًا هنا ، ولا نخدم التحليل بحال^(١١٠) .

صلى الوصية : إيجابا وسلبا

وبعد ؛ فهذه هي وصية المنصور بن أبي عامر العامري لابنه وولي عهده عبد الملك . ولسنا نريد أن نكرر ما قلناه بشأنها في ثانيا البحث ، غير أن ما يمكن أن نعلنه في ثقة واطمئنان هنا أن هذه الوصية في شقها السياسي المحض الجامع المانع قد أتت أكلها وفق ما رسمه الأب وكما اشتهاه ، وكذلك في شقها الأسري ، حسبما دلت عليه مسيرة الأحداث ، فلقد أطبقت المصادر الأندلسية على أن الحاجب عبد الملك بن المنصور قد أدار شؤون مملكته بكفاءة واقتدار ملحوظين . على أن الإنصاف يقتضي أن نشير إلى أنه ليس أمرا علميا ولا واقعا أن نعيد سبب ذلك كله إلى تطبيقه وصية والده حرفًا بحرف ، فنحن هنا إذن نلغي الحقيقة المعروفة ، وهي أن لكل حاكم شخصيته المستقلة ورؤيته المستقلة ، كما نلغي الحقيقة الأخرى بأن لكل عهد قضاياه ومستجداته .

بيد أننا على صعيد القضايا المهمة التي رسم الأب لابنه في وصيته أسسها ، مثل العلاقة مع الرعية ، ثم العلاقة مع الخليفة ، ثم مع بني أمية ، نكاد نخزم بأن للوصية أثرها الكبير . ولربما التقت هذه الرؤية السياسية الصائبة مع ما توفّر عليه عبد الملك من خلال وصفات رجل الدولة الناجح ، فأسفر ذلك كله عن فترة حكم ناجحة أشاد بها المؤرخون ، الذين اعتبروا فترة حكم عبد الملك ،

(١١٠) عن كرائم المنصور : نرجس ، وبنفسج ، وبهار ، وما قيل فيهن شعرا من قبل شاعر المنصور : عبد الملك

الجزيري ، انظر : المقرئ ، نفسه ، ج ١ ، ص ٥٣١ .

وفرة حكم المنصور أباه قبله بأنها كانت « آخر سعد الأندلس ، وحد السرور بها والتأنس »^(١١١) ، كما أن هؤلاء المؤرخين اعتبروا أيامه « أعيادًا دامت مدة سبع سنين ، وكانت تسمى بالسابع ، تشبيهاً بسابع العروس » لجريه على سنن أبيه في السياسة والغزو^(١١٢) .

أما أخوه عبد الرحمن ، وإن لم يوجه الأب له الوصية ، فإنه يتعذر علينا قبول الإدعاء بأنه لم يطلع على أمر الوصية أو لا يعلم عنها شيئاً البتة . ولسنا نريد أن نبني على هذا نتيجة ، وهي أن ذلك قد أدى إلى سقوط الدولة العامرية في عهده . أما أنها سقطت في عهده سنة ٣٩٩ هـ ، فهذا حق وصدق ، وأما أن الفاقة بتعبير الأب حدثت بالدولة في عهده فذلك أمر لا يمكن إنكاره كذلك ، ولكن هل كان ذلك بسبب تجاهله لوصية أبيه الجامعة المانعة المثقلة بعمق التجربة وضخامة الرؤية التي تركها لأخيه ؟ ربما يكون الأمر كذلك . هذا إلى جانب قصر نظره السياسي هو ، وقصور بابه السياسي وافتقاره لصفات رجل الدولة الناجح كما أكد على ذلك المؤرخون الذين أجمعوا على هذا وعلى سوء سياسته . ولعل أظهر مثل ، بل لعل السبب الرئيس في سقوط الدولة على يديه وذهابها ضحية لتصرفاته أنه تجاوز الحد في العلاقة مع الخليفة والخلافة ، فأقدم على ما أحجم عنه أبوه وأخوه ، وهو طمعه في الخلافة نفسها ، عندما أجبر الخليفة المحجور هشاماً على أن يعهد له بالخلافة بعده ، وهذا الأمر ، هو الذي حذر منه الأب ورفع الصوت عالياً أن يُراعى بدقة بالغة ، فكان أن سقطت الدولة العامرية على يديه نتيجة لهذا السبب^(١١٣) .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر

ابن الأثير (ت ٦٥٨ هـ) ، الحُلَّة السَّيَّاء ، حَقَّقَه وعلَّقَ حواشيه حسين مؤنس ، القاهرة ، منشورات الشركة العربية للطباعة والنشر ، ط ١ ، ١٩٦٣ م ، جزء آ .

(١١١) قال هذه الجملة ، ابن خاقان ، المصدر السابق ، ص ٣٧٩ ، وأيده بعده المقرئ ، نفسه ، ج ١ ، ص ٤٠٦ .

(١١٢) عن عهد عبد الملك المظفر بن المنصور ، انظر : ابن بسلام ، نفسه ، ص ص ٧٨ - ٨٦ . ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ص ٣ - ٣٧ . ابن الخطيب ، نفسه ، ص ص ٨٣ - ٨٩ . المقرئ ، نفسه ، ج ١ ، ص ٤٢٣ . وعنه أخذنا العبارة التي بين حاصرتين .

(١١٣) عن عهد عبد الرحمن بن المنصور ، وعن ذم المؤرخين له ولسياسته ، انظر : ابن عذاري ، نفسه ، ج ٣ ، ص ص ٣٧ - ٧٤ . ابن الخطيب ، نفسه ، ص ص ٨٩ - ٩٨ . المقرئ ، نفسه ، ج ١ ، ص ص ٤٢٤ - ٤٢٦ .

ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ) ، الكامل في التاريخ ، عين بمراجعة أصوله والتعليق عليه نخبة من العلماء ، بيروت ، منشورات دار الكتاب العربي ، ط ٣ ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ، ١٠ أجزاء .

ابن بسام الشنتريني (ت ٥٤٢هـ) ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق إحسان عباس ، ٤ أقسام ، ويقع في كل قسم : مجلدان ، بيروت ، منشورات دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع ، ط ١ ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .

البكري (ت ٤٨٧هـ) ، جغرافية الأندلس وأوروبا - مسئلة من كتاب المسالك والممالك ، تحقيق عبد الرحمن على الحجي ، بيروت ، منشورات دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع ، ط ١ ، ١٣٨٧هـ/١٩٦٨م .

ابن حزم (ت ٤٥٦هـ) ، نقط العروس في تواريخ الخلفاء ، فضلة من مجلة كلية الآداب ، جامعة فؤاد الأول ، القاهرة الآن ، بقلم شوقي ضيف ، المجلد الثالث عشر ، الجزء الثاني ، ديسمبر ١٩٥١م .

الحميري (ت ٩٠٠هـ) ، الروض المعطار في خبر الأقطار - معجم جغرافي - تحقيق إحسان عباس ، منشورات مكتبة لبنان ، ط ٢ ، ١٩٨٤م .

ابن حيان (ت ٤٦٩هـ) ، المقتبس من أنباء الأندلس - القطعة الثانية - تؤرخ للسنوات الممتدة من ٢٣٢ - ٢٦٧هـ ، حققه وقدم له وعلّق حواشيه محمود علي مكي ، بيروت ، منشورات دار الكتاب العربي ، ١٩٧٣م . المقتبس في أخبار بلد الأندلس - القطعة الرابعة - تؤرخ لخمس سنوات من عهد الخليفة الحكم المستنصر (٣٦٠ - ٣٦٤هـ) ، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي ، بيروت ، منشورات دار الثقافة ، سلسلة المكتبة الأندلسية رقم (٤) طبعة ١٩٨٣م .

ابن خاقان الأندلسي (ت ٥٢٩هـ) ، مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس ، دراسة وتحقيق محمد علي شوابكة ، بيروت ، منشورات دار عمار ، مؤسسة الرسالة ، ط ١ ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

ابن الخطيب (ت ٧٧٦هـ) ، أعمال الأعلام في من بويغ قبل الاحتلام من ملوك الإسلام ، تحقيق وتعليق إ. ليفي بروفنسال ، نشر على جزأين في عدة أقسام ، وقد نشرت هذا الجزء دار المكشوف ، بيروت ، ١٩٥٦م .

ابن خلدون (ت ٧٣٢هـ) ، العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة ، وراجعته سهيل ذكار ، منشورات دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ط ١ ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، ٨ مجلدات .

الطبري (ت ٣١٠هـ) ، تاريخ الأمم والملوك ، بيروت ، منشورات دار القاموس الحديث للطباعة والنشر ، (د. ت) ، ٥ مجلدات ، ١٠ أجزاء .

ابن عبد ربه (ت ٣٢٨هـ) ، العقد الفريد ، تحقيق محمد سعيد العريان ، تقديم ممدوح حقي ، بيروت ، منشورات دار الفكر ، (د. ت) ، ٤ مجلدات ، ٨ أجزاء .

عبد الواحد المراكشي (ت ٦٢٠هـ)، المُعْجَب في تلخيص أخبار المغرب، ضبطه وصَحَّحه وعلّق حواشيه وأنشأ مقدمته محمد سعيد الريان ومحمد العربي العلمي، تقديم ممدوح حقي، الدار البيضاء، منشورات دار الكتاب، ط ٧، ١٩٧٨م.

ابن عذاري (ت ٦٩٥هـ)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ٤ أجزاء، حَقَّق الأجزاء الثلاثة الأولى: ج. س. كولان وليفى بروفنسال، وحَقَّق الجزء الرابع إحسان عباس، بيروت، منشورات دار الثقافة، (د. ت.).

ابن قتيبة (ت ٣٧٦هـ)، عيون الأخبار، شرحه وضبطه وعلّق حواشيه ورُبِّ فهارسه يوسف علي الطويل، بيروت، منشورات دار الكتب العلمية، (د. ت.)، مجلدان في ٤ أجزاء.

ابن كثير (ت ٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، بيروت، منشورات دار الفكر، طبعة ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، ٨ مجلدات، ١٤ جزءاً، ثم مجلد للفهارس.

المقري (ت ١٠٤١هـ)، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين الخطيب، تحقيق إحسان عباس، بيروت، منشورات دار صادر، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، ٨ مجلدات.

ابن منظور (ت ٧١١هـ)، لسان العرب، بيروت، منشورات دار الفكر - دار صادر، (د. ت.) ١٥ مجلداً.

النباهي «أبو الحسن: علي بن عبدالله بن الحسن النباهي المالقي الأندلسي» (كان حياً سنة ٧٩٣هـ)، كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا المعروف بتاريخ قضاة الأندلس، بيروت، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ضمن سلسلة ذخائر التراث العربي، (د. ات.).

ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ)، معجم البلدان، بيروت، منشورات دار صادر ودار بيروت للطباعة، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ٥ مجلدات.

ثانياً: المراجع العربية

الدوري، إبراهيم ياس خضير، (١٩٨٢م) عبد الرحمن الداخل في الأندلس وسياسته الخارجية والداخلية، بغداد، منشورات دار الرشيد للطباعة والنشر والتوزيع.

سابق، سيد، (١٤٠٣هـ/١٩٨٤م) فقه السنة، بيروت، منشورات دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ٣ مجلدات، ط ٤.

سالم، السيد عبد العزيز، (١٩٧٢) قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، دراسة تاريخية وعمرانية أثرية في العصر الإسلامي، بيروت، منشورات دار النهضة العربية للطباعة والنشر، في جزأين: الجزء الأول سنة ١٩٧١م، الجزء الثاني سنة ١٩٧٢م.

العبادي ، أحمد مختار ، (١٩٦٨) دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ، ط ١ ، الأسكندرية ، منشورات مكتبة محمد أحمد بسيوني .

_____ (١٩٧٨م) في تاريخ المغرب والأندلس ، القاهرة ، منشورات دار النهضة العربية .
فكري ، أحمد ، (١٩٨٣) قرطبة في العصر الإسلامي ، تاريخ وحضارة ، الاسكندرية ، منشورات مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع .

مصطفى ، إبراهيم ؛ الزيات ، أحمد حسن ؛ و عبد القادر حامد والنجار محمد علي . (د . ت) المعجم الوسيط ، جزأين ، منشورات مجمع اللغة العربية بعناية دار إحياء التراث العربي ، وأشرف على طبعه عبد السلام هارون - طهران ، المكتبة العلمية .

المراجع الأجنبية

- Cambridge University** (1963) *Cambridge Medieval History, Vol. 3.* Cambridge University.
Crow, J. (1963) *The Root and the Flowers.* New York, Harper & Row.
Dozy, R. (1913) *Spanish Islam: A History of the Moslems in Spain.* Translated by F.J. Stokes. London: Frank Cass.
Lane-Poole, S. and Gilman, A. (1887) *The Moors in Spain.* London: T. Fisher, Unwin.
O'Callaghan, J. (1975) *A History of Medieval Spain.* Ithaca, Cornell University Press.
Scott, S. (1904) *History of the Moorish Empire in Europe.* Vol. 2. Philadelphia: J.B. Lippincott Company.

Will of Al-Mansour Bin Abi Amir Al-Amri Al-Andalusi: Study and Analysis

YOUSIF BIN AHMAD HAWALAH

*Assistant Professor of Islamic History, Department of Social Studies,
Faculty of Education, Al-Madinah Al-Munawwarah,
King Abdulaziz University, Saudi Arabia*

ABSTRACT. Political wills left by the Caliphs, Kings and Princes to their sons and crown princes are considered a great value in historical studies because they serve as a mirror of a particular period. They are reflections and applications of their philosophies and methods of running the affairs of their governments. In this respect, the will of Al-Mansour Bin Abi Amir Al-Amri (366-392 A.H.) to his son and crown prince Abdul Malik was executed. Al-Amri seized the government in Andalusia from the legitimate Umayyaa Caliph, Hisham Al-Mowaid (366-402 A.H.).

To do historical and scientific analysis of the will, the researcher has provided a historical background of the circumstances related to place, time and psychology of the people, which led Al-Mansour to make the will to his son. Moreover, the researcher has made a historical review of Al-Mansour's life from the time he began to appear on the political platform in Andalusia until he actually became the influential person. However, in the scope of analysis, the researcher has examined and analyzed the contents of the will historically and scientifically highlighting the inherent political aspects in which the father had instructed his son to follow, if he wanted peace, stability and prosperity in his state. Indeed, the son acted upon the contents of the will precisely with the result that its positive effects were reflected in his state which came to be known as a model of peace, stability and prosperity in the history.